2

الرجل والمؤسسة

على حافة العظمة

في الليلة قبل الأخيرة لمغادرة نيكسون «البيت الأبيض»، كنا معاً في غرفة الجلوس التي يطلق عليها اسم لينكولن، نتحدث عن انعكاس موقفه في التاريخ. قلت: «إن التاريخ سيعاملك برقة أكبر من معاصريك»، كان نيكسون متشككاً وقال: «هذا يعتمد على من سيكتب التاريخ».

من الصعب أن نكتب عن ريتشارد نيكسون الذي يجمع ما بين الذكاء والوطنية والشجاعة مع دوافع مدمرة للذات كما في أسطورة إغريقية. الكراهية التي أظهرها تجاه خصومه السياسيين كانت شديدة حتى بمقاييس الديمقراطية الأمريكية المضطربة. عملت مستشاراً رئيسياً له في الشؤون الخارجية لمدة خمس سنوات ونصف، وعندما نكون معاً في المدينة كنت أراه عدة مرات في اليوم، ومع هذا كنت في حيرة تجاه شخصيته التي ربما كانت أعقد شخصية لرئيس دولة في القرن العشرين. أحد الأسئلة التي ستطرحها الأجيال القادمة بالتأكيد هو ما الذي يجعل عواطف نيكسون تسري بعمق شديد؛ هل لأن كل شيء يستطيع المرء أن يقوله عن ريتشارد نيكسون هو صحيح ومع ذلك خاطئ بعض الشيء؟. لقد كان مقتدراً من الناحية السياسية وشديد الذكاء ومع هذا كان ميالاً إلى القيام بأفعال مضرة به؛ محلل استثنائي وإن كان أحياناً يستسلم لدافع غير مدروس بعناية؛ وطني بعمق ومع هذا قد يخاطر بإنجازاته من خلال ممارسات مبهرجة؛ تستحوذ عليه قدرة قوية من الشعور بالذنب مترافقة مع غريزة الانجذاب نحو أفعال تستدعي هذه المشاعر.

كان لديه حكم متميز تجاه الآخرين باستثناء أولئك الذين يمكن أن تؤثر تصرفاتهم في مصالحه الشخصية، ماهر في ممارسته السياسية، وإن كان انطوائياً ومتنسكاً.

لا يوجد شخص تعامل مع نيكسون باستمرار يشك بأنه أمام شخص قادر على فرض إرادته على الظروف، ولكنه لا يستطيع أن يعالج الخلافات وجهاً لوجه، بل يلجأ إلى وسائل بعيدة ومطولة لتحقيق أهدافه بصورة غير مباشرة. نيكسون تواق إلى العظمة وكان قريباً منها، على الأقل بالنسبة لإدارة السياسة الخارجية، ومع هذا فقد دمّر رئاسته بتصرفات لم تكن ضرورية وهي غير جديرة بالاهتمام.

يحتاج الأمر إلى شاعر من وزن شكسبير كي يُنصف الشخصية غير الاعتيادية، الصاخبة، المتبصرة لريتشارد نيكسون ـ أحياناً يبدو عميق التفكير وعاطفياً وحساساً، وأحياناً وفياً جداً، وأحياناً أخرى يرمي المتاعب وراء ظهره. ولكن في النهاية فإن صراع نيكسون الواضح مع نفسه والذي لا نهاية له، يظل بدون حل ويثير الاستغراب؛ لأن المرء في أعماقه لا يمكن أن يتأكد أبداً بأن ما وجده مقلقاً جداً في شخصية نيكسون قد لا يكون انعكاساً أيضاً لبعض الخلل المكتوم ضمن نفسه.

سأظل ممتناً بعمق لريتشارد نيكسون لمنحي فرصة خدمة بلدي، والتي أنقذت أسرتي من ظلم النازية. لقد عينني مساعداً له لشؤون الأمن القومي مع أن جميع نشاطاتي السياسية السابقة كانت لصالح نيلسون روكفلر، الذي كان منافسه الأول على مدى عقد من الزمن أو يزيد. نادر هو الرئيس المعاصر الذي دخل قصر الرئاسة في مثل هذه الظروف المشؤومة بشكل فظيع ـ مطلوب منه أن ينهي حرباً ورّط أسلافُه البلاد فيها بدون استراتيجية للنصر أو للتخلص منها، وهؤلاء الذين أصبحوا الآن خارج السلطة كثير منهم يبدو مصمماً على أن تنسحب الولايات المتحدة وتتخلى عن الحرب دون اعتبار لأولئك الذين ضحوا بحياتهم بكلمة منا.

كان من المحتم أن تتأثر علاقتنا الشخصية بالتناقضات التي يشيعها نيكسون تجاه أعوانه. وكان نيسكون الذي يعامل معارفه وحتى مساعديه المقربين بتحفظ حذر، يبدي القليل من التعاطف. وكان أسلوبه الغامض وغير المباشر في الحكم وميله إلى إثارة النزاعات بين مساعديه مصدر ألم وضيق. أحياناً كنت ألطف أجواء التوتر بتعليقات تثير المشاعر. من جانبه تضايق نيكسون من الشعبية التي اكتسبتها بدءاً بزيارتي السرية إلى الصين التي أوفدني إليها عام 1971، إذ لا يرتاح الرؤساء عندما ينافسهم مساعدوهم في لفت أنظار الجمهور ـ ولا سيما أن بعض مستشاري نيكسون المقربين كانوا يقولون إنني أتعمد التفوق عليه. وإذا كانت كلمة «أتعمد» غير دقيقة، فمن الصحيح حقاً أنني لم أرفض تماماً محاباة وسائل الإعلام لي.

ومع هذا ورغم بعض الشكوك المتبادلة فقد عملت مع نيكسون بشكل جيد جداً. كان يعاملني دوماً وجهاً لوجه بمجاملة واضحة. ورغم أننا لم يكن أحدنا قريباً من الآخر عاطفياً، فقد كنت متأثراً لما أصابه من جراح كما تأثرت غالباً بمعاناته الداخلية كما حصل في الفترة التي سبقت استقالته مباشرة (أي عندما كنت أكثر المقربين إلى نيكسون بعد عائلته بالطبع) أو في الأمسية الأخيرة لرحلته إلى الصين عندما استغرق نيكسون، من على شرفة في شانغهاي، في الحديث عن آماله بعالم يسوده السلام[1].

كنت معجباً حقاً بإسهام نيكسون في سياسة أمريكا الخارجية. ومهما كنت أقدم من نصائح أو مشورات فقد كان نيكسون هو الذي يتخذ القرارات النهائية. وقد كان نيكسون هو من تحمل مسؤولية إرسالي عام 1971 سراً إلى الصين، وهو الذي تحمل عام 1972 مخاطر الرد على هجوم هانوي بمحاصرة

فيتنـام الشمالية، حليفة الاتحاد السوفييتي، قبل أسبوعين من قمة مقررة في موسكو وقبل ستة أشهر من الانتخابـات الرئاسية، كان بوسع نيكسـون أن يسهل رئاسته إلى حد كبير بالتخلي ببساطة عن حلفائنا في الهند الصينية وإلقاء أعباء الهزيمة على كاهل إدارتي كينيدي وجونسون؛ كان لديه بالتأكيد حوافز للقيام بذلـك عندمـا كان مهندسو الحرب الأمريكيون يرهقونه دوماً من أجـل أن يسير في الطريق الوحيد وغير المشـروط للتخلص من المحنة، دون الالتفات إلى حقيقة أن قواتنا وخسائرنا كانت تتزايد تحت إدارتهم حتـى آخـر يوم لهم في الخدمـة. ولما كان نيكسون يعتقـد أن مثل هذا السبيل غير مشـرف ويتعارض مع المصلحة الوطنية، فقد تصرف بالطريقة التي قام بها وحقق تسوية أعلن المنتقدون أنه لا يمكن الوصول إليهـا، وإن تعقّدت في النهايـة بسبب تضافر عناد الفيتناميين الشماليين، وقطع الكونغرس للمساعدات عـن الهنـد الصينية، كما سأصف في فصل لاحق. وحتى عندما كنا نخلص بلادنا من قضية فيتنام، نجح نيكسـون في طرح سياسات جديدة تجاه الصين، وتقليص الأسلحة الاستراتيجية، والعلاقات الأمريكية ـ الأوروبيـة، وعملية السلام في الشـرق الأوسط. ولقد استمرت هذه السياسات، رغم تناقضها، طوال فترة الحرب الباردة وما بعدها.

كانـت الصفة الوحيدة الأبرز فـي شخصية نيكسون قدرته على اتخاذ قـرارات جريئة، وهذه الصفة كانت ملحوظة حقاً رغم أنه لم يكن جريئاً بطبعه أو مقاتلاً، بل على العكس كان يتخذ هذه القرارات بشيء من التخوف والحذر.

أحـد التناقضات في رئاسة نيكسون أن الدليل الموجود في الأشرطة يصوره على أنه مندفع أو متهور، مـع أن نيكسـون الذي عملت معه في ميدان السياسة الخارجية كان لا يتوصل إلى القرارات الكبيرة إلا بعد مـداولات منهكـة، قد يعمل ببداهة، ولكنـه لا يتهور، وأي قرار مهـم في ميدان السياسـة الخارجية كانت تسبقه أسابيع من تقليب الأمور على وجوهها.

معتـزلاً فـي ملاذه في «مبنى المكتـب التنفيذي القديم» وقـد جُرّت السـتائر، قد يعمـل نيكسون على وسـادة مـن طبقات صفراء لإجراء تعديلات علـى خيارات قدمتها له. ولما كانـت التعديلات في أي قرار ذي شأن تتقارب فيه الحجج المناقضة والحجج المؤيدة إلى حد كبير فإن الإجماع بين المستشارين يكون نادراً، فإنه يستغرق في التفكير إلى ما لا نهاية حول كيفية السيطرة على مساعديه المختلفين فيما بينهم. ولكن ما إن يتغلب على هواجسه حول الكارثة، ويجد شخصاً ما «وهو عادة بوب هالدمان أو جون ميتشيل» كي يحمل الأنباء السيئة إلى المساعدين الخاضعين له، فإنه يحقق قفزة كبيرة.

بعـد ذلـك يأخذ نيكسون راحة من العمـل لبضعة أيام كي يشفى من الأزمة ويجعـل أيضاً من الصعب على خصومه في القرار أن يصلوا إليه. إنها بالكاد عملية اتخاذ القرار التي يوصي بها في نصوص الإدارة العلنيـة، والتي كانت مرهقة لجميع المشاركين فيها ـ بمـا في ذلك نيكسون بشكل خاص. ولكن الرؤسـاء

يمكـن أن يفعلـوا ما هـو أسوأ بوضـع الشعار الـذي يستشهد به نيكسون، فـي مثل هـذه المناسبات، على مكاتبهم: «أنت تدفع الثمن لأداء شيء ما حتى منتصف الطريق من أجل أدائه بصورة كاملة، لذا بوسعك أن صنعاً بأدائه كاملاً.

الرئيس ومستشاره

قـال لـي الفيلسـوف السياسي الفرنسي ريمـون آرون ذات مـرة: إن المبالغة فـي الحديث عن نفوذي كانت من صنع المثقفين ووسائل الإعلام بسبب كراهيتهم لنيكسون. خلال فترة من الإنجاز الكبير، ربما أعطتنـي رابطة أعداء نيكسون مصداقية غير متكافئة وسيلةً لحرمان الرئيس المكروه من ادعاءات تراث مستمـر. وبطريقـة غريبة، بعض مؤيدي نيكسون التقليديين اليمينيين عـززوا رسالة الإعلام بوضع اللوم علـيّ تجاه تراجع نيكسـون عن مهمته الأصلية المحافظة. وفي الوقت نفسه فـإن بعض أتباع نيكسون، من أجـل أن يكسبـوا ثقة رؤسائهم ـ وأحياناً ثقة نيكسون نفسه ـ كانوا يصفونني بأنني مجرد موظف مساعد، أو دمية ما يشدّها اللاعب الأكبر بخيوط في يده.

كلتـا الصورتين ـ صـورة المستشار المهيمن والرئيس المهيمن ـ تخالـف الحقيقة. فالاختراقات التي حققتهـا إدارة نيكسـون كانت ترجع إلى حقيقـة أن كلينا أوجد تعاوناً وثيقاً مع الآخـر قائماً على الاحترام المتبـادل، وكان أحدنا مكمـلاً للآخر. ابن «الكويكرز» مـن يوربا ليندا وابن أستـاذ المدرسة الثانوية في بافاريـا قـد أكملا مزايا أحدهما مع مزايا الأخر بطريقة خاصة. كان نيكسون على معرفة شخصية جيدة بالزعمـاء المعاصرين في أرجاء العالـم أكثر من أي سياسي أمريكي عرفته. وكانـت السياسة الخارجية هوايته، وقد عَمّق فهمه لها من خلال أسفاره المتعددة، وأنا عندي معرفة وفهم أوسع بالتاريخ إلى الجانب للجغرافيـا السياسية. كان نيكسون يعمـل بإضاءات تبصرية يتعلق بها بإصرار شديد، أما طريقتي فكانت ترجمة أهداف عامة إلى استراتيجيات طويلة المدى ـ وهي مهمة يفتقر إليها نيكسون بسبب قلة صبره.

كان لدى نيكسون موهبة خاصة، فنظراً لوجود قرارات أساسية متعددة، رغم أنني كنت أرى ضرورتها قبـل أن يـرى ذلك بطريقة مـا، فإن نيكسون مـا إن يقرر العمل فـإن كثيراً ما يتجـاوز توصياتي. في عام 1970 بعـد أن انطلقت القـوات الفيتنامية الشمالية المرابطة في كمبوديـا من قواعدها وهددت باحتلال البـلاد بأكملها، كنت أنا ونيكسون ندرس فرص تحييد الهجوم الفيتنامي الشمالي على كمبوديا والحيلولة دون أن تتحـول البلاد إلـى قاعدة ضخمة تتوجه إلى فيتنام الجنوبيـة. اقترحت هجوما على «باروت بيك» القاعـدة الشيوعيـة القريبة من سايغـون، وبعد تردد دام قرابـة شهر اختار نيكسـون مهاجمة كل قاعدة علـى طـول الحدود الفيتناميـة ـ الكمبودية. وفي عـام 1972، عندما كنا نناقش استئناف قصف منطقة هانوي ـ هايفونغ لكسر الجمود في مباحثات السلام الخاصة بفيتنام، نصحت باستخدام أسلوب القصف بالطائـرات المقاتلة، ولكن نيكسون أمر باستخدام طائرات ب ـــ 52 (ولم أكن أعارض استخدامها ولكن

ذلـك لم يخطر على بالـي). وفي عام 1973، عندمـا حاولت تنظيم الأسطول الجـوي المدني الاحتياطي للبنتاغـون للقيام بجسر جوي إلـى إسرائيل، وافق نيكسون على طلب البنتاغون وأمر بجسر جوي عسكري يستخدم طائرات C-5 العملاقة. وفي كل حالة كان قرار نيكسون تبرره الأحداث.

كان نيكسـون أقل اهتمامـاً بالدبلوماسية، إذ الأولى اهتمامه الأكبـر بالاستراتيجية، ولكن دبلوماسية الأخذ والعطاء، والتقدم البطيء في القرون الدقيقة المتراكمة كانا يرهقانه. قد يستعرض نيسكون بعناية جميع خيارات المفاوضات المختلفة ويستخلص التقارير المفصلة للمفاوضات الفعلية، وقد يقوم بتعليقات معمقة ولا سيما حول المذكرات التي تلخص الاستراتيجية.

وفـي النهاية فإن التعـاون بين الرئيس ومستشـار الأمن القومي سار على ما يـرام لا بسبب أن أحدنا يكمـل قوة الآخـر فحسب (وربما يعزز ضعف كل واحـد منا الآخر نظراً لحساسيتنا تجـاه النقد والخشية مـن تحـولات دبلوماسية مفاجئة) بل لأن نيكسـون وأنا كنا ننظر إلى العلاقـات الدولية من منظور موحد تقريبـاً. كان كلانـا يعتقد أننا وقعنا في مشكلة في فيتنـام لأن من سبقونا قد دفعوا الولايات المتحدة نحو مغامـرة في منطقة بعيـدة لأسباب مهمة ولكنها لا تحقق المصالح القوميـة بشكل ملائم بسبب التكاليف المتوقعـة. فـي عالم أكثر تعقيداً ـ حيث عادت الصين إلى القضايا الدولية، وانبعثت أوروبا، وبات الاتحاد السوفييتـي أكثـر مرونة ـ كانت الولايات المتحـدة تحتاج إلى استراتيجية طويلة المـدى تتجنب التساهل والتشـدد الزائد لإقامة توازن بينهما. مثاليـة أمريكا التاريخية ينبغي أن تُمزج بتقدير للمصلحة القومية، ومعالجتنـا للعلاقـات الدولية ينبغـي أن تتحول عن التدخلات العلنيـة إلى سياسـة استراتيجية تأخذ في اعتبارهـا متطلبـات التوازن. كان ذلـك ـ وربما ما يزال حتى كتابة هذه السطور ـ رأي أقلية في المجتمع لـم يكن لديها خبـرة بالمآسي الوطنية، وتفهم أن تحقيق السلام يتم عـن طريق نشر مفاهيمها الداخلية في العالم.

نيكسون والمؤسسة

كان نيكسـون يُصـوَّر، في فلكلور أعدائـه كمعاد شديـد للشيوعية وممثلٍ نموذجـي للاتجاه المحافظ اليميني. كان هذا بعيداً عن صورته، فنيكسون وضع نفسه موضع «المؤسسة» التقليدية، ولما كنت على صلة وثيقـة مع كل من ريتشارد نيكسون ونلسون روكفلر، والأخير مقرب من المؤسسة، فإني لم أجد فرقاً كبيراً فـي معالجتهما للسياسـة الخارجية ـ ولكن كان هناك خلاف في شخصتيهمـا ومواقفهما تجاه المنظمة. أثنـاء إحدى المناقشات بيني وبين نيكسون عام 1970، قال نيكسون إنه لا يوجد إلا ثلاثة اتجاهات ممكنة بالنسبة للسياسة الخارجية الأمريكية: الاتجاه المحافظ الذي يعتبر رونالد ريغان من أبرز ممثليه، والاتجاه الليبرالـي الذي يعتبر هيوبرت همفري من أكثـر ممثليه جاذبية، والاتجاه المعتدل الذي كان يعتقد أنه هو الـذي يمثلـه. ورأى نيكسون أن السياسة المحافظة ستكون مولعـة بالقتال دون أن تكون فعالة، وقد تخاطر

بعـدم تأييد الرأي العام الأمريكـي لها وكذلك عدم تأييد حلفائنا. أما الموقـف الليبرالي فسوف «يبيعنا» ونخاطـر بحرب مفروضة من قبل اليمين المحبط إذا ما شعر الرأي العام الأمريكي أن الولايات المتحدة قـد ضعـف موقفها. وأصر نيكسون علـى أن الشعب الأمريكي ليس «خاسـراً»، وسيطالب برد فعل قوي، بل وعنيـف على الهزائـم العسكرية أو النكسـات الدبلوماسية. وتابـع نيكسون قائـلاً إن السياسة الخارجية المعتدلة التي يتبعها «هي الحصن الوحيد للاستقرار الدولي». ولعل روكفلر كان مستعداً للموافقة على كل كلمـة في هذا البيـان. (ولكن نيكسون كان مخطئاً في تقييمه لريغان، رغـم أنه محافظ فعلاً. ففي الوقت الذي ذكر فيه نيكسون هذا التحليل كان الجناح المحافظ الجديد لم يوجد بعد).

وخلافـاً لروكفلر، لم يكن نيكسون يعتبر نفسـه عضواً في المؤسسة. (على الرغم من أنه بالنسبة إلى روكفلر كانت هذه العلاقات أقرب إلى أن تكون لقباً من أن تكون رابطاً عاطفياً) فقد كان يشعر أنه موضع تجاهل من قبل النخبة قبل وأثناء فترة رئاسته، وقد عزا هذا الرفض إلى معاداته الصريحة للشيوعية في الخمسينيـات، ولاستخفافه برمز الأرستقراطية الشرقيـة ألغار هيس. كان حديث نيكسون، الذي تصرف بحقـد مريـر، يغمره الغضب ضـد النفاق والكراهية الحقـودة لدى من نعتهم بـ « مجموعة كوكتيل جورج تاون» ومجلس العلاقات الخارجية. كان يرى في «المؤسسة» عدواً والأعداء ينبغي أن يُلقى بهم في الزاوية. لـم يقـدم أعداء نيكسون له أية فائدة منـذ البداية. وما كاد يمضي نصف عام علـى ولايته، حتى كان من يعتبرهـم نخبـة البلاد ينظمون مظاهرات عارمة شلّت واشنطن مـن دون أي محاولة لفهم الرئيس، الذي كان قبل كل شيء، يحاول أن يتعامل مع الأزمات التي خلفوها له[2].

ومع هذا فإن الرئيس هو رمز الوحدة الوطنية، وهذا ما أملى الالتزام بالترفع عن مستوى الخصوم الذين يسعون إلى بعض المصالح الشخصية وتجنب الخصومات اليومية. الفرق بيني وبينه أن نيكسون حـاول أن يستبـق الرفض مفترضاً موقف العداوة، ولكنني لم أكن أعتبـر المؤسسة الفكرية عدوّاً غريباً لا ينبغـي الاقتـراب منـه، لقد كانت جـزءاً من العالـم الذي عشتـه وعرفته جيداً، والـذي خرجت من بيـن صفوفـه ولهذا السبـب سعيت طيلة فترة خدمتـي الحكومية، إلى أن أبقى علـى تواصل مع الوسط الأكاديمـي. وأثنـاء مسيرات الاحتجاج المختلفة في أماكن متفرقة قريبـة من البيت البيض كنت أرسل بعض الموظفين لمقابلة الطلاب وعمداء الكليات ودعوتهم إلى مكتبي للحوار، والحق أنه لم يكن يمضي أسبـوع ــ ولاسيما في السنتين الأوليين من عملي الرسمي ـ بـدون أن يزورني بعض مجموعات الطلاب من كلية أو أخرى.

مـن دواعي السخرية أن إجـراء الحوار حقق عكس الهدف المقصود، لأنـه أدى إلى سوء تفاهم بيني وبيـن الجماعـات المثقفـة ــ ولاسيما مع مـن كانوا يمثلـون جامعة هارفـرد. في البداية فسـرت جماعة المثقفين تطلعي إلى تبادل الآراء الذي هو نوع من التعاطف مع وجهة نظرهم كبرهان على أنني كنت تحت

سيطرة رئيس ميال للقتال وغير متوازن، ولكن عندما تحققوا بالتدريج أنني في صف نيكسون بدأ كثير من المثقفين الليبراليين يعاملونني كخائن انتهازي لقضيتهم.

ما حدث في نهاية إدارة نيكسون أن الرئيس وأنا وجدنا نفسينا متضايقين باستمرار ممن يعتبرونَ في الأصل من جمهورنا الطبيعي. فالليبراليون اتهموني بأنني تخليت عنهم من أجل السلطة، واعتقد المحافظون أن نيكسون قد أغرته أطياف «المؤسسة».

في هذه الأجواء اتخذ التخلص من فيتنام طابع الحرب الأهلية. كان نيكسون قد ورث الحرب في جنوب شرق آسيا. وكان ما تعداده 540000 جندي أمريكي قد أرسلوا إلى جزء من العالم أبعد ما يكون عن الولايات المتحدة جغرافياً وثقافياً. وعندما استلم نيكسون السلطة كان عددهم ما يزال في ازدياد وفقاً لخطة كانت قد أعدتها إدارة جونسون. لم نجد خططاً للانسحاب ولا استراتيجية للتفاوض متفقاً عليها في البيت الأبيض.

كنا مستعدين مع ذلك أن نتحمل مسؤولية سحب الولايات المتحدة من هذه الكارثة دون أن نضع اللوم على من سبقونا، ولم نكن بالطبع لنترك البلد الذي فقدنا فيه قرابة 40 ألف قتيل أمريكي يفرض الحكم الشيوعي على عشرات الملايين ممن علقوا حياتهم وآمالهم على كلمتنا. ولكن كان ذلك شرط فيتنام الشمالية على مدى سنوات لوقف إطلاق النار.

ولكن ما إن تركوا السلطة فإن أولئك الذين ألقوا على عاتق نيكسون هذه الأزمات المأساوية تصرفوا كما لو أنهم أبرياء، وغالباً ما بدأوا ينتقدون إدارة نيكسون لأنها عجزت في أربعة أشهر عن تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في أربع سنوات. وقد شارك موظفون كبار من إدارة جونسون في مظاهرات الاحتجاج كما لو أن إعاقة السلام آتية من البيت الأبيض وليس من عناد وتصلب فيتنام الشمالية ـ وهذا شيء يعرفونه أفضل من أي شخص آخر بوصفه السبب الرئيسي للوصول إلى حائط مسدود. وعلى مدى سنة كانوا يضغطون علينا لتقديم تنازلات لم يفكروا فيها قط عندما كانوا في السلطة. وفي عام 1968 اختلف المؤتمر الديمقراطي حول ما يدعى «برنامج السلام» وانتقل هذا الاختلاف إلى صراع في شوارع شيكاغو. وفي خريف 1969 وافق نيكسون وعرض العناصر الأساسية لهذا البرنامج، ومع ذلك شهدت تلك الفترة مظاهرات جماهيرية كبيرة معادية للحرب[3].

المفارقة الساخرة أن المتظاهرين اليمينيين كانوا يناقشون في ملاءمة السلام بالنسبة لنا بأي ثمن ـ وهو ما كنا نعتقد أنه يخاطر بحياة الجنود الأمريكيين وسط 700 ألف مقاتل من القوات الشيوعية، وقرابة مليون مُسلح فيتنامي جنوبي لن يكونوا مرتاحين إذا ما تخلينا عنهم. ولم يكن نيكسون يتقبل أن يكون خيار مجتمعنا المفضل هو الهزيمة بمثل هذه اللامبالاة وعدم الاهتمام لتخلينا عن ملايين من البشر أعطيناهم الوعود. لقد سحب بشكل منفرد نحو 150.000 من الجنود في غضون سنة. وفي نهاية فترة ولايته الأولى كان قد سحب أكثر من نصف مليون جندي، وقلص الخسائر في الأرواح من 14.600 جندي

عـام 1968 إلـى 300 جندي عام 1972 مع الإبقاء على فيتنام الجنوبية مستقلة. ومع هذا فقد كان نيكسون يُتهم «بقتل الأمريكيين بلا داعٍ» بحافز سفك الدماء.

فسـر نيكسـون هذه الهجمات عليه بأنها الثأر الدائم «للمؤسسـة» ضده. ما لم يفهمه (ولم أفهمه) أن حركـة الاحتجاج الراديكالية لم تكن ذراع المؤسسة، لا بل إن الراديكاليين يعتبرون «المؤسسة» الليبرالية التقليدية العدو الأشد لهم. ورد نيكسون المطوق، ببيانات نارية ضد ما كان في الواقع مؤسسة مرتعدة.

ومـن الغريب أنه، أثناء الحديث الحافل بالضغائـن، كان نيكسون يؤمن أن ظروف الحرب الأهلية هي نتيجـة لبعض سـوء الفهم التاريخي، الـذي أستطيع أنـا – الأستاذ في هارفرد وعضـو «مجلس العلاقات الخارجيـة»، وصديق نيلسون روكفلر ـ أن أساعده بطريقـة ما على تجاوزها، وتلا ذلك السراب فيض من الرسائـل الرئاسية انهمر على مكتبي مـع تعليمات بإعلام الصحافة أو زعماء «المؤسسة»، وأن أعاقب في الوقـت نفسه المتمردين. كانت العقوبـة عادة من التعليمات التي أرفض توجيههـا إلى صحفيين معينين، حتى لو كانوا الأشخاص أنفسهم الذين كنت أحث على محاكمتهم. ولم تلق هذه المهمة على عاتقي بسبب ثقة ما في مهارتي على التعاون مع وسائل الإعلام ـ فإنا لم أكن قد عقدت أي مؤتمر صحفي قبل أن أُعيّن مستشاراً للأمن القومي، فقد كانت تعبيراً عن اعتقاد نيكسون أن عدوانية النخبة تعود بالدرجة الأولى إلى التحامل الطبقي، الذي أستطيع أنا، بحكم صلتي المفترضة بالمؤسسة، أن أغيره.

النقطـة الحاسمة بالنسبة لـكلا الطرفين جاءت عند الكشف عن «وثائق البنتاغون» في شهر حزيران 1971. فقـد حقـق الحدث ما يقـرب من الوضـع الطقسي وما يزال يحـدث في أحـداث احتفالية عديدة كتظاهرة كلاسيكية للصحافة البطولية التي تتحدى حكومة قمعية. قد يتردد المرء في تحدي أرثوذكسية راسخة، ولكن جانب نيكسون من القصة يستحق التفسير.

عندمـا تنشر سبعـة آلاف صفحة من الوثائق في الصحف الكبرى فليس مـن البداهة أن يكون التزام الرئيس وحده هو المادة الأولى في استبعاد المبادئ الأمريكية الأساسية الأخرى ـ ولاسيما في زمن الحرب حيـث ما يزال مئـات ألوف الأمريكيين في خطر. لقد أصبح اهتمام نيكسـون بحسب ظنه (وظني) واجباً لأن منشـورات البنتاغـون جرت في وقت كانت تتخذ فيه الإجراءات لقيامـي بزيارة سرية للصين، وكانت المحادثـات السريـة جارية في باريـس لإنهاء الحرب في فيتنـام. كلتا هاتين المهمتيـن الدقيقتين كانت تتعرض للخطر من خلال ظهور السلطة التنفيذية الأمريكية بمظهر المتراجع، كما أن قدرة واشنطن على المحافظة على مناقشات سرية أصبحت موضع شك.

كان اهتمـام نيكسـون الأول هو حمايـة المصلحة القومية من خلال التأكيد علـى حقيقة لم تذكر قط وهـي أن أيـة وثيقة من «وثائق البنتاغـون» لم تكن تحرج نيكسون أو إدارتـه لأن كل واحدة منها جاءت من مصنفات من سبقوه من الرؤساء، ولا سيما من إدارتي كينيدي وجونسون.

علمت لأول مرة بنشر الوثائق في صحيفة نيويورك تايمز التي صدرت يوم الأحد 13 حزيران عام 1971، عندما كنت في الشاطئ الغربي. ولما كانت جميع الوثائق تعود إلى مصنفات وزارة الدفاع، فقد افترضت أن الإفشاء بها قد أوحى به أحدهم ممن عمل في وزارة الدفاع من أجل إحراج أسلافنا في الحكم. استدعيت آل هيغ، ثم نائبي، وطلبت منه أن يحذر وزير الدفاع ميلفين ليرد كي يمنع الموظفين التابعين له من نشر وثائق رسمية لأهداف سياسية، وأن الاستمرار سيؤدي إلى خسارة من خلال هذه التكتيكات. سألني هيغ كم عدد الوثائق المعنية تظن، وعندما قلت إن الرقم يقارب العشرين أجاب هيغ: «كم سيؤذيك رقم لايقل عن 7 آلاف»؟ وسرعان ما تمت معرفة من قاموا بهذا العمل.

كان بوسع رئيس ساخر أن يعلن الوثائق على الملأ وأن يستخدمها للإشارة إلى حجم الأخطاء التي ورثها، ولكن لما كانت المسألة تتعلق بالأمن القومي، فإن نيكسون لم يكن ساخراً منتقداً. مايُحزن أنه بدلاً من أن يقاتل من أجل المبدأ، حوّل قضية مهمة إلى مصادمة أخرى في ثأره من رسائل الإعلام، فالالتجاء إلى المحكمة لمناقشة أمر قضائي لم يكن عملاً حكيماً كما لاجدوى منه، بل كان بالأحرى غير أخلاقي وغير مشرف. لايوجد مبرر لأساليب قانونية مبالغ فيها تستخدم ضد دانيال اليسبيرغ الذي سرّب الوثائق. كما لم يكن من مبرر لمناقشة مثل هذه الأفعال (كما كشفت الأشرطة) كاقتحام «معهد بروكينجر» حيث يفترض أن توجد مجموعة من الوثائق المحفوظة، بالمقارنة مع كرامة الرئاسة ومركزها الأخلاقي ـ بغض النظر عن أنها لم تُنفذ مطلقاً.

خرق القانون لم يُبرأ قط طيلة فترة وجود نيكسون في المكتب البيضاوي، ولم يستقر نيكسون المهزوم والذي لحق به العار إلا بعد عقد من الزمن بوصوله إلى نوع من الهدنة مع متعقبيه السابقين. وقد فعل ذلك تحت تأثير التعليقات العقلانية العامة والاجتماعات الخاصة مع مجموعة السياسة الخارجية في واشنطن. هل تعلم أن نيكسون ، المهزوم، لم يعد يشكل تهديداً؟ أم أن عروض نيكسون ـ لأنه هو الذي اتخذ الخطوة الأولى بشكل واضح ـ قد حررت أخيراً كلا الطرفين من الهواجس الخاصة بهم؟ مهما كانت الإجابات فقد أسهم موت نيكسون بمعالجة العديد من الأمور، ما كان يمكن معالجتها طوال حياته، ومن العجب رغم كل ماأحاط به من إهانة فإن جنازته في نيسان 1994 تحولت إلى مناسبة وطنية شارك فيها جميع رؤساء الجمهورية السابقين الباقين على قيد الحياة، كما أبنّه الرئيس كلينتون الذي كان معارضاً لفيتنام.

نيكسون الإنسان

في ميثولوجيا الطاعنين به ـ وفي بعض الصور السينمائية ـ كان ريتشارد نيكسون رجلاً متكلفاً يتحامل على التابعين له، ويسيطر على البيئة المحيطة به بإصرار شديد وصارم ـــ تحت تأثير الكحول غالباً. لا شيء من هذا يصح على نيكسون، على الأقل ريتشارد نيكسون الذي عرفته وتعاملت معه.

مـن خلال تجربتي أعـرف أن نيكسون لا يتعاطى أي مشروب أثناء العمـل أو في «المكتب البيضاوي»، حتـى مساعـدوه المقربون نادراً ما كانوا يرونه يشرب. المشكلة أن نيكسون لا يتحمل حتى كمية ضئيلة من الكحول، إذ يكفي كأسان من النبيذ لجعله كثير الصخب، وكأس ثالث لجعله يتعاطف مع ما يسمع. الكحول كان الوسيلـة لإضعاف وسائـل دفاعه التي بناها بعناية كي تمكنه من النجاح فـي مهمة غير معتاد عليها. هذه الحالات كانت تحدث نادراً، وغالباً في الليل، وليس في مجال اتخاذ القرارات الكبيرة أبداً. والقلة منا ممـن شهدوا مثل هذا التصرف لم يأخـذوا ما كان يقوله على محمل الجد، وكنا نشعر أن الرئيس يستحق فرصة أخرى كي يعيد النظر في أية قضية كانت.

ريتشارد نيكسون الذي تعاملت معه يومياً لمدة خمس سنوات ونصف كان ناعم الحديث عادة وخجولاً، وكان حديثه معي ومع جورج شولتز يختلف عن طريقة حديثه مع باقي موظفي البيت الأبيض. كان نيكسون قادراً على السيطرة على محادثة ما عبر احتكار الكلام لنفسه وليس عبر حوار حقيقي. وقد يبدو نيكسون لمـن يؤمنـون بآرائه مسيطراً وواثقاً من نفسه ولكنه كان يكـره عدم الاتفاق معه وجهاً لوجه بأي شكل. في أحاديثه الكثيرة معي كان يسأل أسئلة متبرمة كثيرة، وقد يعلق أحياناً بملاحظات ماكرة جداً. وكان قادراً علـى تغييـر رأيه من خلال مجادلة معاكسة، ولكـن هذه كانت حالات متباعدة. لا أتذكـر ـ ولم أسجل في سجلاتي ـ أي حوار حقيقي كانت فيه وجهات نظرنا متعاكسة.

الطريقة التي كانت الخلافات بيننا تعالج بها هي أنني كنت أسجل بعض التعليقات السلبية بدرجة أو بأخرى، على ما يقوله نيكسون. وبعد وقت ما أحياناً كنت أعود إلى النقطة ذاتها بدون أن أعزوها له وأطرح وجهـة نظـري. وبعد فترة أخرى من الانقطاع، كان نيكسون يعيد التأكيد على موقفه الأصلي أو يغيره ودون أن يعترف بالاختلاف فيما بيننا.

لمـا كان هـذا الأسلوب ينطوي على خطر كبير من سوء الفهم، كنت أدير معظم المناقشات السياسية المهمـة مع نيكسون وجميع عروض الأفـكار تقريباً من خلال مذكرات. ولشعـوره بالراحة لعدم وجود من يتحدث معه لم يكن نيكسون يجد غضاضة في قراءة آراء مناقضة. وكان يشعر بالحرية في اتخاذ الإجابة وفـي اتخـاذ أوامر واضحـة حول مسألة مـن المسائل، ومؤرخـو المستقبل البعيدون عـن مشاعر اللحظة الراهنـة سوف يجدون في دراسة هذه المذكرات الضخمة فائـدة أكبر كثيراً من الحوارات المسجلة على أشرطة.

سبب حياء نيكسون في المقابلات وجهاً لوجه لا يعود إلى العجرفة؛ بل إنه انعكاس لخوفه من مواجهة الرفـض، الآخـرون الأكثر معرفة بسنوات نيكسـون المبكرة ربما كانوا أكثر قدرة علـى شرح هذه الإعاقة الموجودة لدى رجل في مثل هذا الذكاء يمتلك طاقات غير عادية من الإقناع، والمفارقة الأكبر أن نيكسون كان يبـدو مشـدوداً تجاه الرفض أكثـر من الحقيقة، وإذا ما حـدث الأسوأ ووقع الانهيـار المفرغ (نصف

المتوقع) كان نيكسون يُبدي ثباتاً وبأساً ومرونة. وكتابه «ست أزمات» مادة خام لمحادثاته الخاصة، يعدد بعض الكوارث الآتية، رغم أن كثيراً منها قد وقع فيما بعد[4]. وبعد وفاة جون كينيدي عام 1960، وبعد أن أسقط المصوتون في كاليفورنيا ترشيحه لمنصب الحاكم عام 1962، عاد نيكسون ليُنتخب رئيساً عام 1968، ثم بعد الاستقالة من الرئاسة عاد من المنفى في سان كليمنت ليعيد بناء نفسه باعتباره مشاركاً جدياً في الحوار الوطني (خلافاً لسبيرو أغنيو الذي اختفى عن الأنظار بعد استقالته).

كي يوفر نيكسون على نفسه المشاحنات وجهاً لوجه قدر الإمكان كان يتجنب مواعيد المكتب حيثما أمكن إلا إذا كانت مقابلات أعدت بعناية، والعاملون منا في الدائرة المقربة لم يكن شيء أكثر مشقة من مهمة إقناع نيسكون بمقابلة شخص ما لم يكن يعرفه من قبل، أو مقابلة شخص يمكن أن يخلق وضعاً غير ملائم ـ أي يحمل رأياً لا يعرفه نيكسون بالتفصيل مسبقاً.

الجانب المعاكس لهذا الخوف من الرفض ـ ثقل الموازنة مثلا ـ كان صورة نيكسون الرومانسية عن نفسه كمناور لا يخشى شيئاً، يسير وسط الطبول غير متأثر بالاضطرابات من حوله أو النصيحة المغايرة من جانب حكومته وأعضائها. كان ذلك هو الوضع حقاً، ولكن الأغلب أن ينهك نيكسون حاشيته بالمخابرات الهاتفية من أجل مزيد من التأكد.

في سعيه إلى تلقي مصداقية منفردة يفسر لماذا كان نيكسون نادراً ما يمتدح أي واحد من مساعديه ـ كما تشير إلى ذلك مذكرات هالدمان.[5] ربما عن غير وعي أو قصد كان نيكسون يسعى إلى تعزيز مقامه باستبعاد مساعديه، وبذلك يجسد انفراده.

كان ثمة جانب آخر لهذه العبادة لـ «الرجل الصارم» يتجلى في محادثاته مع موظفيه ، فقد يبتكر نيكسون سلسلة من الاقتراحات المبالغ فيها، والتي لم يكن يتوقع، في قرارة نفسه إمكانية تنفيذها، بعضَ الأوامر التي ترفع الضغط الدموي، نجدها في الأشرطة التي تم تحريرها والتي كان لها علاقة بهذه النزعة البغيضة ـ وأعتقد أن لها صلة بفضيحة ووترغيت نفسها.

كان نيكسون مقتنعاً، وكرر ذلك عدة مرات في مناسبات مختلفة أثناء الحملة الانتخابية عام 1960، أن مكتبه وطائرته كانا موضع تنصّت من قبل معسكر كينيدي. وأشك بأنه كان يشعر أن انتصاره القريب المؤكد عام 1972 لن يكون مكتملاً حتى يظهر قدرته على أن يلعب وفق القواعد نفسها التي تخيلها وأعجب بها وكان يخشى أن تكون جماعة كينيدي قامت بها[6].

في السياسة الخارجية كانت تلك الأوامر الصارمة أقل وقوعاً. بعد عدة أشهر أمضيتها مع نيكسون، كنت قادراً على أن أميّز بين ما كان ينوي أن يُنفذ على الفور وبين ما يريد أن يتركه لبعض الوقت لإعادة النظر فيه. على سبيل المثال، في مساء يوم السبت من شهر آب (أغسطس) عام 1969، خطفت طائرة تابعة لشركة TWA وعلى متنها أمريكيون إلى مطار دمشق. نقلت هذا الخبر إلى نيكسون، الذي كان في

سـان كليمنـت مع صديقين له، ومن أجل أن يؤثر في صديقيه أصدر نيكسون أمراً صارماً: «اقصفوا مطار دمشق». كنت واثقاً أن القرار لن ينفذ وهتفت إلى وزير الدفاع ميل ليرد كي يخبره بما حدث.

لقـد كانت حاملتا الطائرات فـي البحر الأبيض المتوسط بعيدتينِ عن موقـع الحدث، وقصف بلد ما ليـس بالمسألة البسيطـة التي يُصدر فيها أمر، فلا بد من اختيار الأهـداف، وإعداد سيناريو دبلوماسي، وإعلام الصحافة. لذا قررت أنا وليرد أن ننفذ مضمون الرسالة بتنفيذ الخطوات الأولى وترك الإجراءات الأخـرى إلى الصبـاح، أمر ليرد الحاملتيـن بالتوجه إلى ساحـل قبرص بدون الإعلان عـن الهدف، مما يمكننـا من الاستجابة بصـدق لمطالب الرئيس الآنية بجعل الحاملات تتحرك حقاً إلى الموقع، وأخبرني ليرد بأنه أيدني في محادثته مع الرئيس على أنه لا يوجد لإضاعته، نظراً لأن الظروف الجوية كانت تحول دون العمليات الجوية.

فـي صبيحـة اليوم التالي أطلعـت نيكسون على آخر أحـداث الأربع والعشرين ساعـة الفائتة، بما في ذلـك اقتراب حاملات الأسطول السادس الآن من قبرص. سأل نيكسون بتجاهل: «هل حدث شيء آخر؟». وعندمـا أجبتـه بالنفي، قال الرئيس ـ دون أن تتحرك أي عضلة في وجهه ـ «حسناً». ولم أسمع أية كلمة عن قصف دمشق.

بقيـت قريبـاً من متابعة أخبـار حركة الحاملات التي لا بـد أن المخابـرات السوفييتية قد لا حظتها، وبدون سحب التهديد. الاختصاصي نائب وزير الخارجية أليكس جونسون، الذي كان على علم بالتحركات دون أن يعلم بأوامر الرئيس، ساعد على إعداد مسودة دليل لوزارتي الخارجية والدفاع.

تقـول المذكـرة: «بعض قطع الأسطـول السادس ما تزال مستمرة في تحركهـا وفق الخطة المرسومة لهـا، والقائمـون عليهـا يعون حقيقـة أن التوترات قد تـزداد نتيجةً للخطـف. لقد فعلنا هـذا للتأكيد على استعدادنا».

المسائل التي يطرحها نيكسون كأوامر، ولكنها في الواقع مادة لإعادة النظر لا تصل دوماً إلى مثل هذا المستـوى المستقـل بالاحتمالات، ففي ت2 عام 1970 على سبيل المثـال كان نيكسون أول رئيس دولة يعلن اهتمامه بخدمة الرئيس بريغول في كاتدرائية نوتردام. ولما كان هذا قد أدى إلى إغراق وفود أخرى رفيعة المستـوى، كانت معاملـة الفرنسيين لنيكسون في وسائـل الإعلام والحكومة صحيحـة بشكل غير عادي. المصادقة الواسعة هي إحدى الخبرات الرئيسية لأي زعيم سياسي ولكنها كانت متميزة لدى نيكسون، في رحلتنا الجوية أقنعت الرئيس أن يفرض سلطانه على هالديمان، الذي أراد أن يعود نيكسون على الفور بعد القيـام بالعمـل الاحتفالي وحذرت من أن عدم الانضمام إلى حفل الاستقبـال المعد لرؤساء الوفود سوف يعتبـر إهانـة. ربما شعر هالديمـان أنني تدخلت في شؤونـه واقترح مناقشة الموضوع عنـد تناول العشاء فـي مطعم مكسيم. فـي ذروة الروح المعنوية لتلـك الليلة لدى وصولنا إلى باريس عـاد نيكسون إلى فكرة

هالديمان، اعترضت على ذلك لأن الفرنسيين سيغضبون إذا ذهبنا من نوتردام إلى مطعم مكسيم. التفت نيكسون، الذي نادراً ما يكون مستعداً بالقبول بعدم موافقته وجهاً لوجه إلى السفير آرثر واطسون وقال: «احجز مائدة، قل لهم إننا لن نأخذ أي نبيذ، لا قابلية».

عندما قال نيكسون «لا قابلية» كانت العبارة تعني أنه لم يكن متأكداً جداً من نفسه، غادر هالديمان وواطسون الغرفة لتنفيذ الأمر، وتبعتهما خارجاً، أكدت على أن تناول العشاء في مطعم مشهور سيسيء إلى المبادرة الطيبة التي أبداها الرئيس، والأمر بعدم تقديم النبيذ سيلفت الانتباه إلى التنافر، قال هالدمان بابتسامة: « إنها الآن مشكلة في السياسة الخارجية» مما كان يعني أنهما كانا يوافقانني ولكنهما فضلا أن أتحمل المسؤولية. طلبت من واطسون أن ينتظر، إذ قد يكون الضحية، وإذا أصر نيكسون فسأتحمل مسؤولية التأخير ومايزال لدينا وقت كي نقوم بالحجز في الصباح.

فيما كنت أناقش نيكسون حول اليوم المحدد، سأل ماذا يمكن أن يحدث بعد الاحتفال التذكاري، اقترحت أنه يستطيع أن يراجع لائحة رؤساء الدول والحكومات الذين سيحضرون حفل الاستقبال الذي يقيمه بومبيدو في «الإليزيه» بعد الظهر، وكانت هناك ملامح ابتسامة على وجه نيكسون عندما قال : «هذا صحيح».

معظم الزعماء تستحوذ عليهم فكرة كيف سيعاملهم التاريخ، وبالنسبة لنيكسون كان هذا بمثابة كابوس دائم، إذ كان يخشى أن تتبخر جهوده في الهواء، أو تتعرض للسقوط نتيجة كراهية منافسيه وعدم مبالاة المؤرخين. في فترات منتظمة كان نيكسون يرسل إلي مذكرات مطولة حول كيفية تفسير الأعمال المختلفة التي قام بها للأجيال القادمة، والقصد من هذه المذكرات ليس التأثير المباشر في الجمهور ـ فهي شديدة التعقيد بالنسبة له ـ بقدر التأثير في حكم التاريخ بحيث يكون جزءاً من سجله الدائم.

ثمة مناسبتان مماثلتان في التعامل مع السياسة الصينية، الأولى يعود تاريخها إلى 9 آذار (مارس) 1972، وهي تغطية مسودة مذكرة شانغهاي التي نُشرت في نهاية زيارة نيكسون للصين في شباط 1972. في هذه المذكرة، لأول مرة في تاريخ الدبلوماسية الحديثة، سجل الطرفان بدايةً الآراء المختلف حولها تجاه عدة موضوعات قبل ذكر سلسلة ما تم الاتفاق عليه، مذكرة نيكسون هذه تشرح الأسباب أي لماذا تعمد اختيار هذا الأسلوب، فقد كان يريد أن يطرح الموقف الأمريكي المعتدل أمام الشعب الصيني. وقال نيكسون إنه توصل إلى هذا القرار من خلال تجربته عند زيارة موسكو بصفة نائب رئيس عام 1959. عندما أُتيحت له الفرصة أن يخاطب الشعب الروسي مباشرة تعمد نيكسون أن يتحدث بلهجة المصالحة لإيجاد أقصى حد من التناقض بين وصف الدعاية السوفييتية للولايات المتحدة وبين أقوال نائب الرئيس الأمريكي. حثني نيكسون على قراءة «ست أزمات» وكذلك خطبته في موسكو كي أفهم الأسباب التي دعته إلى اختيار الأسلوب نفسه في مذكرة شانغهاي:

لمـا كنت قد مـررت بهذه التجربة، صممت أن أجعل من هـذه الوثيقة والتي سيسمع فيها الزعمـاء الصينيـون لأول مرة وكذلك الكـوادر وبعض جماهير الشعـب الصيني إلى حد مـا جانباً من الموقـف الأمريكي الذي عبرت عنـه. كان علي أن أقـوم بأكبر جهد ممكن لجعلها مقبولة عندما يسمعونها، ولن تكون مقبولة بالطبع إذا ما عرضنا موقفنا بطريقة عدوانيـة لأن 22 سنة من الدعايـة المتشددة ستجعل من المستحيـل لقارئ المذكرة، أو لمن يسمعونها في الإذاعة، أن يقبلوا بها إذا كانت عدوانية.

أمـا المذكـرة الثانيـة، المؤرخة فـي 14 آذار 1972 فقـد وقعها هالدمـان، بلغة ومحتوى أملاهمـا نيكسـون بوضوح[7]، وهي تبـرز المزايا التي عرضها الرئيـس في بيجينغ. فقد عرضـ مقابلاته مع الزعمـاء الصينيين على أنها مجابهات بـارزة، طُلب مني أن أفصل استعـداد نيكسون الحـذر، واطلاعه، وحبه للفكاهـة، ومهاراته، وحدة طبعـه، وتقشفه، وقدرته على الاحتمال.

الجانـب الملفت للنظر في كلتـا المذكرتين تجسيده للواقع في صـورة رومانسية للرئيس البطـل المسيطر علـى كل ماحوله ـ رغـم أن الرئيس كان لابد أن يعـي أنني أعرف أكثر منـه. ولكنني ألتفت إلى المناسبة، وليس إلى الجمهـور والحق أن نيكسون لم يشترك في وضـع مسودة بيـان شانغهاي قط. الجزء الـذي أشار إليه أعـدت مسودته في ت1 1971 أثنـاء زيارتي الثانيـة للصين. الصيغـة المختـارة لتسجيل وجهات النظـر المختلفة لم تكـن فكـرة أمريكية، ولكنها فـي الأصل فكرة رئيـس الوزراء زهر إينـلاي وسيلةً لتجنب مجموعـة من الملاحظـات التافهة والتظاهر بعدم وجود خلافات مـن أجل إلقاء الضوء على ما تم التوصل إليه من اتفاقيات فعلية جيدة، رأيت أنها فكرة جيدة وأيدتها. قمت أنا والمساعـدون العاملون معي بوضع مسودة نص تتعلـق بالموقف الأمريكي، وكان نيكسون قد صادق عليها عند عودتي بدون تعليق يذكر.

أمـا بالنسبـة إلى لقـاءات نيكسون مع مـاو وزهو أثنـاء القمة الصينية عـام 1972، فقد خلـت مـن المجابهة، وكانت تتضمـن تفهماً من كلا الجانبين مع احتـرام وتقدير للوضع الجيوسياسـي. كانت تلك الاجتماعات مهمتها أن تنسـق المصالح الاستراتيجية الدولية للبلـد الأكثـر سكاناً فـي العالم، والمجتمـع الصناعي الأكثـر تقدماً. وقـد أدار نيكسون مفاوضات الجانب الأمريكي بعمق وبشكل تحليلي، وفصاحة وبدون أية ملاحظات.

تجاوزت إنجازات نيكسون في الواقع انطباعه عنها، فنيكسون الذي وقع المذكرة كان أقل أهمية بكثير من نيكسون الزعيم الذي شق الطريق إلى الصين، وعرف كيف يدير النقاش بعبارات جيوسياسية، وعرض

وجهة النظر الأمريكية إزاء القضايا الدولية بطريقة مقتدرة. وأظهر التاريخ أن نيكسون لم يكن يحتاج إلى مؤسسات لأنه كان من أكثر الرؤساء الأمريكيين إبداعاً في حقل السياسة الخارجية.

مـن منظـور مكانة نيكسون في التاريـخ، كانت علاقته معـي لا تخلو من سخرية. فمـن أجل أن يظهر أولويـة البيـت الأبيض وإضفاء الشعور بـأن جميع القرارات تتخذ في المكتب البيضـاوي، وليس في وزارة الخارجيـة، فقد منحني نيكسون صلاحيـات استثنائية، واثقاً من أنه يستطيـع أن يمارس تأثيراً عاماً من مساعد له، فإنه كثيراً ما استخدمني ناطقاً باسمه في استراتيجيته للسياسة الخارجية، مما كان يظهرني وكأننـي ناطق باسم البيت الأبيض. وفي إظهار غير عادي للثقة الشخصية، كان يطلب مني أن أدير جميع المفاوضات: مع فيتنام الشمالية، والتحضير لرحلة الصين، والإعداد لقمة موسكو، والاتصال مع مختلف أطراف الشرق الأوسط.

لـم يتخيل نيكسون قط أن مساعـده الموظف عنده يمكن أن يحقق شهرة مستقلة في مناسبة قد تمس شهرتـه، لذا لـم يسمح لي أن أظهر على التلفزيـون حتى رحلتي السرية إلى الصيـن في تموز عام 1971، وبعـد ذلك حتى نهاية ولايته الأولى في شهر تشريـن الأول (أكتوبر) عام 1972. وكان يصر على ألا يُسمع صوتـي بسبب لكنتـي الأجنبية، وعشية إعادة انتخابه طلب مني نيكسـون أن أرد على تسريب هانوي لخبر تسوية دائمة لمشكلة فيتنام.

فجـأة ظهرت بمظهـر شخصية عامة كبيرة حقاً، بالتأكيد أنا لم أخطط لهـذا، ولكنه كان أمراً مؤلماً لنيكسون أن يضطر إلى مشاركتي غلاف مجلة «تايم» الذي يصور «رجل العام» لسنة 1972، أو يراني أتلقى جائزة نوبل للسلام لعام 1973 التي كان يضع عينه عليها. ولما كنت أعي هذا فقد طلبت مراراً من هيدلي دونوفـان الذي كان آنذاك رئيسـاً لتحرير مجلة «تايم» أن يجعل نيكسون وحده «رجل العام» ولكن دونافان أنهى توسلاتي قائلاً: إذا تكلمت ثانية على الهاتف حول هذا المطلب فسأجعلك «رجل العام» الوحيد.

بعض مساعدي نيكسون كانوا يسربون عنـي أخباراً سيئة مثل عدم الاستقرار العاطفي، وعدم قدرتي علـى حل الأزمات، وأنني أقول عبارة «السلام في اليـد» بدون تفويض كي أكسب تأييداً لنجاح نيكسون في الانتخابـات. وبعضهم كان يقول إنني مجرد أداة في يد محرك الدمى[8]. حتى نيكسون نفسه بعد أن غادر الرئاسة كان يشارك أحياناً في مثل هذه الاتهامات على طريقته الخاصة.

من منظور الزمن، إذا لم يكن من منظور اللحظة الراهنة، كان هناك تعبير عن السخط وعدم الفهم. ومهما قيل فإنه لم يؤثر في علاقتنا اليومية الوثيقة والتعاون عندما كان الرئيس في سدة الحكم، أو تعاوننا المشتـرك بعد ذلـك. كشأن الآخرين المقربين مـن نيكسون، كنت أكاد أُجن أحياناً مـن مناوراته التي لا تنتهي وغموضه. ولكنني كنت في الوقت نفسه معجباً بإظهاره للثقة الشخصية بنفسه عندما تحزم الأمور، وعندما تقتضي الأمور المحافظة على المصلحة القومية في زمن الأزمات والاختلافات.

نظام التسجيل

لـم يسهم قرار من قـرارات نيكسون في سقوطه النهائي مثل إيجاد نظام التسجيلات الذي يسجل كل كلمـة تقـال في «المكتب البيضاوي»، وفي بناء «مكتب نيكسون التنفيذي»، وفي غرفة اجتماع الوزراء لفترة ثـلاث سنوات تقريباً، وخلافاً لنظام ليندون جونسون المشابه الذي لا يعمل إلا عندما يضغط الرئيس زراً علـى مكتبـه، فإن نظـام نيكسون كان يعمل آليـاً، مما يعني أنـه كان يفقد السيطرة على مـا يسجل. ومما جعـل نيكسـون يتخذ هذا القـرار أن جونسون أطلعه على نظامـه الخاص بالتسجيلات أثنـاء فترة انتقال الرئاسة، مما جعل نيكسون ينقله بسرعة إلى «المكتب البيضاوي» لأنه اعتبره اقتحاماً عنيفاً للخصوصية. وكان نيكسـون في بدايـة ولايته يتحدث في بعض الأحيان عن نظام جونسـون التسجيلي كمثال على جنون الارتياب.

لـم يفسـر نيكسون قط مـا جعله يغير رأيه وينشئ هـذا النظام الأكثر تطفلاً والأقـل ضبطاً من حيث التحكـم بـه. ولمـا كنت لم أعرف بوجوده إلا بعـد أن أصبح هيغ رئيساً للأركان ــ أي قبل ستة أسابيع من انكشافه علانية ـ فقد خمنت أنه من بنات أفكار نيكسون وهالدمان. وأحد أسباب تشكيل هذا النظام تعود ولا شـك إلـى عقلية الحصار التي كانت تحيط بـ «البيـت الأبيض»، ولا سيما بعد الأزمة الكمبودية في ربيع عـام 1970. لقد وضع هذا النظام ليظهر نيكسون بمظهر السيطرة الكاملة، والرئيس الذي يخطط بعناية لخطواتـه وسيطرتـه على الأحداث خلافاً لما يقوله بعض منتقديه. وربمـا كان هناك سبب ثانوي وهو أنه يساعد نيكسون على كتابة مذكراته.

ولكن محادثات المكتب الحرفية هي أسوأ طريقة لإظهار الترابط المنطقي. حتى بالنسبة إلى شخصية أقـل تعقيـداً من ريتشارد نيكسون سيكون مـن الصعب بعد سنوات من الحدث أن نفـك ما هو ساخر عما هـو أصل، ومـا هو تجريبي عما هو جدي. تلك كانـت مشكلة استثنائية مع سيـد الغموض والمداورة هذا. ومـن أجل الخلاصـ كان أولئك الذين يعملون مع نيكسـون يومياً قد أصبحوا خبراءَ فـي ملاحظة أسلوبه الملتوي في توضيح أفكاره عن طريق الرمية المرتدة وتعلم التمييز بين التوجه الظاهري لملاحظاته وبين مقصدها النهائي. ولكن بعد سنوات من الأحداث كيف سيتمكن الصحافيون أو الباحثون من الوصول إلى هذا التمييز أو حتى فهم أنها تحتاج التحقق منها؟.

كانـت تأملات نيكسـون أو أوامره العشوائية الظرفية جزءاً من المشهد ـ أو يمكن القول ضجة خلفية، فلم تكن تؤخذ على أنها إرشادات للعمل بل كتعبيرات عن مزاج، وطريقة الرئيس في نفث البخار. وتعطينا محادثـة مع هالدمان جـرت في صيف 1972 مثالاً عن رد فعل مستشـاري الرئيس المقربين على تعليماته الرئاسية. وكانت المناسبة طلبي من هالدمان أن يحدد جدول أعمال اجتماع ما:

هالدمـان: عليـك أن تسأل أليكـس (باترغيلد) حول ذلك؛ فأنا غير مسموح لـي أن أتدخل في مسائل وضع جدول أعمال.

كيسينجر: أوه، حقاً.

هالدمان: أمرت أن أبقى بعيداً عن مثل هذه الأمور.

كيسينجر: مادا تفعل؟.

هالدمان: لم أتبين ذلك بعد. أحاول أن أفهم هذا الجزء من العمل. المشكلة تتعلق بعدم وجود أي أحد لإدارة مثل هذه الأمور، ولهذا توقفت عن إدارة الأمور رغم أنني أستطيع ذلك.

كيسنجر: (يضحك).

هالدمان: في الوقت الحاضر إن الأمر مجرد قليلاً، ولست متأكداً تماماً كيف ستجري الأمور.

كيسنجر: حسناً، ستجري عندما تضع خطة عمل.

هالدمـان: حسنـاً، جمعت كل الموظفين حـول أليكس اليوم، وسار بعيداً، وتابـع كل شيء مع الرئيس، وجعل كل شيء يعمل بنجاح.

كيسينجر: هذا سيستمر لمدة 48 ساعة.

هالدمان: هذا ما أظنه. طوال هذه المدة سيكون في أفضل الأحوال.

كيسنجر: ثم سيصرخ في وجهك لأنك أزعجته بإرسال أليكس إليه.

هالدمان: ثم سأقول عندئذٍ «ولكن يا سيادة الرئيس».

كيسنجر: سيقول «أنت لا تفهم. اكتب ذلك الآن».

هالدمان: يقول «لا أهتم بما قلت، ليس هذا ما قصدته.

لهذا كان من الصعب تقويم الأشرطة على ثلاثة مستويات على الأقل: أولها أن النية الحقيقية لنيكسون ليس من السهل معرفتها. هل يتظاهر؟ هل يناور مُحادثه؟ هل يريد أن يعمل؟ هل هي انتقام متخيل ضد منتقديه؟ ما هي الأشياء الأخرى التي قيلت في مناسبات أخرى ومن قِبل من؟ ماذا تظهر التسجيلات المكتوبة؟.

كان نيكسـون ماهراً في كتابـة المذكرات السياسيـة أو التعليقات الهامشية حـول الانصياع المسجل للآخريـن، ولكن الأشرطة تجـاوزت هذه كلها ـ على الأقل ما اختير منها للنشر ـ فقد أظهرت نيكسون في أسوأ صورة: صورة المناور والمتصنع معاً.

ثانيـاً إن هـذه الأشرطة تظهـر الجانب الأسوأ لدى محـاوري نيكسون أيضاً، وهذا مـا كان المقصود جزئيـاً، من السهل على الغرباء أن يصفوا استقـالات بطولية عندما يسمع أحدهم عن خرق مبدأ حرفياً.

ولكـن فـي أي « بيت أبيض» يوجد جو من التملـق لاينفصل عن السلطـة المطلقة المتركـزة في الرئاسة المعاصـرة. بيد أن استنزاف التعيين، إن مساعـداً رئاسياً رفيع المستوى يعرف أنه لايستطيع أن يفعل أي شـيء أكثـر أهمية وإنجازاً . لذا سيكون عازفاً عـن المخاطرة بهذه الفرصة في الجدل حول نقطة ما ليس لها نتيجة عملية مع الرئيس ـ وبصورة خاصة ليس مع شخص كنيكسون لديه طريقة في رد الفعل عصبياً في عدم الموافقة وجهاً لوجه.

التسويـة هـي أن تتجنب أوامر لا تتوافق مع مبادىء المرء وليس أن تجـادل حوارات نيكسون الداخلية خارج نطاق الصلاحية (وحتى ضمن هذا النطاق من الأسلم أن تقاوم عبر مذكرة أو محادثة مع هالدمان أو ميتشيل بدلاً من المجابهة المباشرة) . وفي استرجاع للذاكرة نجد أن هذا يمثل توازناً حول كيفية القيام بأفضل إسهام في السياسة القومية.

وثالثـاً لـم تنجـح الأشرطة في تقديم سيـاق، في القضايا المتعلقـة بالتطور المستقبلـي، مثل فيتنام ووترغيـت، التـي تطورت تدريجياً، فقـد كان هناك كثير من الملاحظات في مرحلـة أبكر «لنقل في بداية ووترغيت عندما لم يكن مداها الكامل قد اتضح بعد» ويمكن ألا تتكرر فيما بعد. على سبيل المثال، في ك 1997، بعـد أكثـر من 20 سنة على الواقعة، سخرت عدة صحف كثيراً من تعليق لي حول نيكسون في بداية عـام 1973 بـأن إنجازات سياسته الخارجية سـوف تذكر أكثر بكثير من «ووترغيـت»، لقد أهملوا ذكر أن البيـان قد أدلي به قبل أن يذهب جون دين إلى المدعي العام، وقبل أن يضطر هالدمان وإ-يرليخمان إلى الاستقالـة، وقبل أن يصبـح السياق الكامل للانتهاكات معروفاً للجمهور، ومع هذا مازلت أعتقد أن حكمي سيقـف في وجه حكم الزمن، وقد كررته أمام نيكسون بعد فترة طويلة من مغادرته السلطة وكان في وضع لا يمكنه من أن يفعل أي شيء من أجلي.

علـى الرغم من جميع هذه المؤهلات فإن الأشرطة تظهر جانباً واقعياً جداً وبائساً من جوانب رئاسة نيكسـون: منهـا وجود عنصر المناورة فـي صميم نظام تسجيل الأشرطة. إذ لمـا كان نيكسون وهالدمان وقلـة مـن الفنيين يعرفون وحدهم بوجوده، فقد اعتقدوا أنهم يستطيعـون أن يرتبوا أوضاعاً لتعزيز سجل نيكسون التاريخي، أو لوضع أساس لتحويل الملامة إذا ما سارت الأمور على نحو سيء.

وفـي استعـادة للذاكرة أعتقد أن كثيراً مـن المحادثات التي شاركت فيها كانت تبـدو أنها تحقق هذا الهـدف، فعلى سبيل المثـال، في يوم الاستعداد لتفجيـر موانئ فيتنام الشمالية رتّـب نيكسون وهالدمان اجتماعـاً فـي «المكتب التنفيـذي»، وكان الهدف منه أن أبـدو، من خلال ما يسجل علـى الأشرطة، مؤيداً قويـاً لمـا كان قد تقرر من قبل. ولما كان الوقـت قد تأخر كثيراً للتأثير في أية قـرارات، فقد كانت الغاية إيجاد شريط مسجل يجابه أية محاولة من وسائل الإعلام لتصويري كعنصر كابح أو ممانع، أو على العكس لتصويري، في حالة الفشل، على أنني أنا القوة الدافعة وراء هذه الكارثة[9].

ولكـن فـي مجرى يوم العمل، لا بد للمنـاورات الناجحة أن تكون نادرة حقاً. فبعـد أن أعلمني هيغ عن نظـام التسجيـل في أيار (مايـو) 1973 ونبهني إلـى ضرورة الحـذر، كان لدي تجربـة شخصية مع هذه الصعوبـة. فـي مجرى الأسابيع الستة التـي كان النظام ما يزال يعمل بها، لم ألاحـظ أي تغيير فيما كنت أقولـه في اتصالاتي اليومية مع الرئيس. لقـد كان من العسير جداً أن يراقب المرء نفسه ويقلق من كيفية ظهور المحادثة عند إعادتها.

مـن المؤكد أن نتيجة نظـام التسجيل كانت مختلفة بصورة درامية عما كان القصد منها، ربما اعتقد المصممـون أنهم سينشرون هذه التسجيلات بعد انتهاء ولاية نيكسـون، ولكن الإصغاء إلى هذه الأشرطة المتعلقة بنيكسون كان يحتاج إلى سنوات للاستماع إليها، واستعادةُ محتواها كان يمثل عقبة في أدائها.

يمكـن للمـرء أن يخمن أن هـذه الأشرطة كان مآلها في النهاية إلى مكتبـة نيكسون الرئاسية كما كان يقصـد. وربمـا يستفيد منها بعض الباحثين أو الدارسين، ولكـن ما حدث أن نظام التسجيل هذا لم يضر بشـدة سمعة نيكسـون الآنية، بل عقّد أي تحليـل موضوعي لرئاسته. ولما كانت هـذه الأشرطة ذات طابع آنـي أو مثيـر للشهرة والاهتمـام، فإنها كانت تحـول دون أي اعتبار جـدي لفهم ما هو أكثـر أهمية بكثير لتلـك المرحلـة: العدد الهائل مـن المذكرات التي كانت الأساس الحقيقي لاتخاذ القـرارات، في ميدان السياسـة الخارجيـة على الأقل. وليس مـن السهل مقارنتها حتى بالبيانات التـي يدلي بها المتحدث حول الموضـوع نفسه. ومن دواعي السخرية أن ولع نيكسـون بالتسجيل التاريخي جعل المؤرخين شبه عاجزين عن استخلاص التقويم الدقيق لرئاسته.

عملية نيكسون في البيت الأبيض

ذلـك الرجـل بمثل هذا التعقيـد النفسي استطاع لمـدة ثلاثة عقود أن يحضر نفسـه لدور رئاسي في السياسـة وأن يصـل إلـى القمـة يمثلاً لقوة نـادرة عزّ نظيرهـا. كان نيكسون قادراً علـى ذلك عن طريق إجـراءات تسمـح له في أن يتجنب كوابحه ويهيـئ نفسه لعملية الحكم كل «بيت أبيض» يعكس إلى حد ما الصفات الشخصية للرئيس. ولكن نيكسون كان فريداً في طلبه لترتيبات غير متوقعة تسمح بمنحه ميزات متضاربـة. فـي كان نيكسون حازمـاً وشجاعاً ولكنه كان يعـزف عن تسوية الخلافات وجهـاً لوجه. أولئك الذيـن عملوا منا معه بصورة يومية كان يعرفون جيـداً أن نيكسون كان غير قادر على القيام ببعض الآراء التـي يطرحهـا أمـام مساعد له أو زائر مع مجموعة مـن التعليقات فيما بعد لمساعـد أو موظف تزيد عن خياراته وتهيئ حاجزاً لتراجعات غير متوقعة.

كان نيكسـون يكـره الاجتماعات الموسعة، ولاسيما تلك التي قد يطلـب منه فيها أن يصل بين وجهات نظـر متضاربة ـ بغض النظر عـن أن هذه المهمة هي إحدى المهمات الأساسية لأي رئيس. من جهة ثانية كان يريد الاطلاع على طبيعة المسائل المطروحة أمامه، وكان يصر على حلها بما يتفق وأفضلياته. وكان

الرئيس يرفض الاهتمام بكيفية نقل الأوامر معتبراً هذا عملاً إدارياً بحتاً. وكانت هذه مهمة لاختبار التوازن العصبي لطاقم مساعديه يومياً.

حل نيكسون هذه المشكلة المحيّرة ـ على الأقل في أواخر فترة حكمه ـ بوضع نظام لاتخاذ القرار يعتمد أساساً على المذكرات بدلاً من المقابلات وجهاً لوجه. وكان يتعامل مع المناوشات الشخصية من خلال ثلاثة من مساعديه هم: جون إيرليخمان، مستشار الرئيس للشؤون الداخلية، وعليّ في شؤون الأمن القومي، وبوب هالدمان بوصفه مدير الموظفين. وحيثما أمكن كان نيكسون يتجنب عقد اجتماعات مع أعضاء حكومته ورؤساء الوكالات إلا إذا كان مطلعاً مسبقاً على مضمونها أو أن أحداً من مساعديه ـ وغالباً ما يكون المدعي العام جون ميتشيل ـ يكون قد أجرى مفاوضات مسبقة حول النتائج. وإذا رفض عضو في الحكومة أن ينتظم ضمن هذه القواعد، فسوف يجد الوصول إلى الرئيس أكثر فأكثر صعوبة.

ولهذا السبب كان واحد من هؤلاء المساعدين (أو ممثله) يحضر الاجتماعات الرئاسية، كحاجز في حال انهيار الإطار المتفق عليه، والأهم من ذلك أن يضمن أن المسؤولين عن المتابعة يعرفون ما قاله فعلاً. كان عزوف نيكسون العاطفي عن إحباط متوسل كبيراً جداً بحيث كان ثمة خطر دوماً من أن يتحمل مسؤولية وعد غير قابل للتنفيذ «ولو كان نيكسون بمفرده لكان من الصعب الوصول إلى حساب دقيق، أو الإذعان لوجهة نظر محادثة ما ـ والذي غالباً ما يكون متخذاً أو لكن سرعان ما يصبح سرابا بعد أن يغلق الباب وراء الزائر.

أثار نيكسون منافسة حادة بين مستشاريه في الوقت الذي كان يحافظ فيه على سر أهدافه النهائية. كان مصمماً على أن تدار السياسة الخارجية من «المكتب البيضاوي» وكثيراً ما يتحدث إلى وزير الخارجية، ولكنه نادراً ما كان يرسلني إلى المفاوضات السرية ذات القناة الخلفية بدون أن يُعلم بيل روجرز. في الوقت الذي كان يشكو فيه لهالدمان بشأن الحزازات ما بين كيسنجر وروجرز التي لم يكن يتوقف قط عن إثارتها هو نفسه، وكانت النتيجة أن وزارة الخارجية كانت تتصرف غالباً بطريقة تتعارض مع ما أقوم به باسم الرئيس والذي لا تعرفه الوزارة. والنتيجة الطبيعية أنني كنت أنا الذي أتعرض للملامة في معظم الأحيان.

لا شك أنه كان لي دور مهم في صياغة القرارات ثم شرحها لوسائل الإعلام. ولكن في النهاية لا يستطيع أحد أن يدفع نيكسون في اتجاهات معاكسة لآرائه أو في أهداف لم يدرسها بعناية على الأوراق الصفراء التي كانت سنداً له في الحوار. أما بالنسبة لي فقد كنت أشعر كما لو أنني في مقدمة قطار أصادف تعارضاً بعد آخر، فيما يقف المشرف في برج المراقبة ينظر، رافضاً أن يفتح المحول، متوقعاً من المراقبين أن يوقفوا أجهزة الفرامل في آخر لحظة.

الأجواء تتلخص في تعليق لي ذكرته في أواخر عام 1971 أمام جون أوزبورن، عميد صحفيّي واشنطن، في الإجابة عن ملاحظته إذا ما كنت مدير اللعبة (يقصد السياسة الخارجية الأمريكية) قلت: «أنا إما مدير لهذه اللعبة وإما ممثل في لعبة أخرى لم يطلعوني على حبكتها بعد».

تجربـة البقاء باستمرار في أرض غريبة لا يملكها أحد مزعجة للغاية بحيث إنني فكرت في الاستقالة بعد أن تصبح الاتفاقيات مع فيتنام سارية المفعول، وذلك في نهاية السنة الأولى من ولاية نيكسون الثانية. وفي بداية عام 1973 بدأت مباحثات أولية للحصول على زمالة في «كلية أُول سولز» في أوكسفورد.

بسبـب أسلوب نيكسون في التحكم بالمنافسات والاختلافات البيروقراطية المتتالية كان مضطراً إلى اتخاذ إجراءات خاصة للحكم على الخلافات والخصومات. كان يطلب من هالدمان ـ وفي حالات أقل من جـون ميتشيـل ـ أن ينهي النزاعات التي أوجدها هو وصعّدها معاً. وكان المتنافسون الآخرون يتقربون من هولدمـان بوصفه المساعد المقرب من نيكسون. ولكن هالدمان لم يكن مهتماً بمثل هذه الأمور ولا مطلعاً علـى السياسـة الخارجية، كان هواه العلاقات العامة، وكان يميل إلـى معالجة النزاعات الإدارية على أنها انحرافات عن الرسالة الرئيسية، بطريقة تقود المتنازعين إلى مزيد من الجنون.

نشأت شهرة نيكسون في «الخداع» من حاجته إلى أن يوازن ما بين كراهيته للمجابهة المباشرة وتوجهه الأساسي الأقوى لإحياء قناعاته في السياسة الخارجية. وبقدر ما يبدو هذا محالاً، فإن ما كان خداعاً هو طريقة نيكسون في أن يكون مبدأ (أو قاعدة للعمل والسلوك).

ومـع هذا فإن تدبير متطلبات الجهاز البيروقراطي بوجود عـادات نيكسون في العمل كانت مهمة شاقة لم تُحل بصورة كاملة قط. إنها من طبيعة البيروقراطية إيجاد وثائق تتطلب قرارات، ولكن كثيراً من هذه القرارات ـ لاسيما المسائل المتعلقة بمراقبة التسلح ـ كانت تزعج نيكسون. كان يفضل التركيز على القضايا الأساسية: التوجهـات النهائيـة للسياسة القومية، والأساس الاجتماعي لحركة الاحتجـاج، والسياسات بعيدة المدى تجاه أوروبا، والصين، والشرق الأوسط، والاتحاد السوفييتي. وبالنتيجة، وهذه إحدى التناقضات الكثيرة التي تحيط بنيكسـون، فإنه رغم الوقت الطويل الذي كانَ يمضيه في المكتب لم يكن يكرس ذلك الوقت لمشكلات الحكم، بـل كان نيكسـون يميل إلى النشاطات غير العادية، أما الجهود المثمرة ولا سيما في المسائل الروتينية: فكانت ترهقه جسدياً وتجعله نزقاً سريع الغضب. ولم يكن لديه هوايات ينشغل بها في أوقات فراغه.

كان يمضـي كثيـراً من الوقت الـذي يعتبر عادة وقتاً شخصياً في ملاذه فـي « مبنى المكتب التنفيذي القديـم» أو في كامب ديفيد ويجلس في كرسي مريح، واضعـاً قدميه على مسند والستائر مشدودة، ويُعلق علـى مذكرات تتعلـق بالمفاهيم أكثر مما تتعلـق بالأفعال ويسجل ملاحظات علـى أوراقه الصفراء، ومن أجـل أن يريـح نفسه من التوتر الداخلي كان يستدعي أحـد معاونيه كي يراجع مذكراته ويسترجع مرة تلو المـرة معـارك سنواته الأولى من قضية ألفير هيس إلى انتخابـات كاليفورنيا عام 1962. هذه المحادثات المملـة يمكـن أن تستمر لساعات في حيـن يكون المستمع المختار مشغول الذهـن باضطراب تجاه العمل والمكالمـات الهاتفيـة التي تنتظره في المكتب، يشفق على مأساةٍ ما كـي يُسلي الرئيس ويسمح له بالعودة إلى عمله المعتاد.

تصور لي محادثة مع هالدمان أزمة مستشاري نيكسون الذين سرعان ما تتحول دوافعهم إلى عكس ما يتمنـاه المساعـدون عادة، وهو قضاء أكبر وقت ممكن مع الرئيس. وهـم يشتكون من معاناتهم من أجواء البيـت الأبيض وتحسسهم من انطـواء الرئيس الذي كان يضطرهم لملء فـراغ حياته أكثر من الحصول على نصيحة عملية.

في بداية حزيران 1972حاول هالدمان، الذي كان قد أمضى بضعة أيام في كامب ديفيد مع نيكسون، أن يغريني بالذهاب إلى هناك بحيث يستطيع أن يأخذ إجازة:

هالدمان: ألا تأتي إلى كامب ديفيد المجيدة؟.

كيسنجر: كنت أخشى ذلك - أحسب أنني لا أستطيع أن أتهرب.

هالدمان: هل تريد أن تتهرب منه؟.

كيسنجر: حسناً، إذا كنت أستطيع أن أغادر في الصباح الباكر فلا بأس..

ماذا يدور في رأسه ؟

هالدمـان: لم أتحدث إليه اليوم. أردت أن أبحث ذلـك معك. إذا كانت مشكلة حقيقية بالنسبة إليك، فسنرى إذا ما كنا نستطيع أن نخفف منها.

كيسنجر: ولكن هل ترى أن من الأفضل أن آتي؟.

هالدمان: إذا كنت تستطيع أن تفعل ذلك دون أن ترمي نفسك في مشكلة، نعم..

كيسنجر:.. هل سأتناول طعام الغداء عندئذ معه أم معك، أم ..

هالدمان: أظن ذلك، نعم.

كيسنجر: ثلاثتنا؟.

هالدمان: كلاكما.

كيسنجر: لا، أنت ستنضم إلينا.

هالدمان: لا، لا.. أنا لا أتغدى أبداً مع الكبار.

مـع أن نيكسون حذر عادة مـن الزائرين إلا أنه كان يتمتع مع الضيـوف الأجانب. فالرؤساء الزائرون القادمون من الخارج نادراً ما يأتون من أجل إجراء مفاوضات. إنهم يسعون بالأحرى للحصول على تأكيد للمجرى العام للأمور. وهذا ما كان يسمح لنيكسون أن يركز على عرض استراتيجيتنا الشاملة، أو تحليله لوضـع معين، وكلا هذين الأمريـن كان يؤديهما باقتدار. ولكن حتى في مجـال خبرته ما كان يلتقي زائراً بدون تحضير دقيق كي يقلص من احتمالات أمر غير مرغوب فيه أو من مجابهة مباشرة غير متوقعة.

كان الموظفون العاملون لدي يحضرون مذكرات مفصلة تشرح الغرض من الزيارة والترتيبات العملية، ومـا يريد المتحدث الأجنبـي أن يقوله، وتوصياتنا بأفضل الإجابات، والنتيجـة المرجوة، والمخاطر التي ينبغـي تجنبها. وكان نيكسون يلتزم بالمذكرة كلها أو بالجـزء الذي يراه مفيداً. ولما كان نيكسون لا يحب أن يعتـرف بحاجتـه إلى أية مساعدة في مجال السياسة الخارجية ـ وهو بالفعل على اطلاع غير عادي في هـذا المجال ـ فإنه لم يكـن يسمح لواضعي المذكرة بحضور الاجتماع، بل كان يفضل أن يتحدث ارتجالاً، كان يحب حياة المخاطرة وإظهار مهارته إلى أعلى حد.

فـي إحـدى المناسبات جرى الترتيب على غير مـا يرام، وقد كان الخطأ خطـأ موظفي مجلس الأمن القومـي وليـس خطأ نيكسـون. بمناسبـة احتفال ما للأمـم المتحدة دُعـي رئيـس وزراء موريشيوس إلى واشنطـن. وموريشيوس هي جزيرة شبه استوائية تقع في المحيط الهنـدي، تتمتع بأمطار غزيرة وزراعة غنية، وعلاقتها مع الولايات المتحدة ممتازة. لسبب ما ظن أحد الموظفين عندي أن الزائر من موريتانيا وهـي بلاد صحراوية قاحلة تقع في غرب إفريقية وكانـت قد قطعت علاقتها الدبلوماسية معنا عام 1967 تضامناً مع الإخوة المسلمين في أعقاب حرب الشرق الأوسط.

أفـرز سـوء الفهم هذا حـواراً غير عادي. فقد اقترح نيكسـون، داخلاً رأساً إلـى الموضوع المهم، أن الوقـت قد حان لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وموريشيوس. وأضاف: إن هذا يسمح باستئنـاف المساعدة الأمريكية، ومن جملـة فوائدها المساعدة في الزراعة الجافـة التي تتوفر للولايات المتحـدة قدرات خاصة بها كما قـال نيكسون. الضيف المذهول الذي جاء فـي مهمة ذات نوايا طيبة من بلاد ذات أمطار غزيرة حاول أن ينتقل إلى موضوع واعد آخر.

وتسـاءل إذا ما كان نيكسون راضيـاً عن عمل المحطة الفضائية التي أوجدتهـا الولايات المتحدة في بـلاده. وهنا جـاء دور نيكسون للانزعاج وأخـرج أوراقه الصفراء وانتزع واحدة. وكتـب عليها بخط يده: «لماذا بحق الشيطان لدينا محطة فضائية في بلد ليس بيننا وبينه علاقات دبلوماسية؟».

نظام مجلس الأمن القومي

إذا كانـت غرائـب أطـوار نيكسون عديـدة فلا بـد أن نوازنها مقابل حقيقـة أنه في ميـدان السياسة الخارجية قد حقق تقريباً كل شيء سعى إلى تحقيقه. ففي النهاية لم ينجح نيكسون فقط في إعادة صياغة الكثيـر من قضايـا السياسة الخارجية التي وجدها عندما تولى الرئاسة، بـل وفي ترسيخها بمعنى أن أية إدارة لاحقـة، مهما كان خطابها الدعائي مختلفاً، لا بد أنها عادت إلى الموضوعات الرئيسة لاستراتيجية نيكسون ـ والى حد ما النظام الذي وضعه لمجلس الأمن القومي (NSC).

لم تكن العملية مكتومة ولا انفرادية كما كان يرسمها المعادون لنيكسون كاركاتورياً[10]. جنباً إلى جنب فـي جو البيت الأبيض السِّريالي بعض الشيء في عهد نيكسـون، أوجدنا مسيرة منتظمة بشكل غير عادي

وواسعــة المــدى لمجلس الأمن القومي. لم توجد أيــة إدارة مستعدة للمفاوضات بصــورة شديدة التدقيق مثـل إدارة نيكسون، ولا سيما في الولاية الأولى. والمفاوضات ـ حتى السرية منها كانت في معظم الحالات موثقة بتسجيلات حرفية ومذكرات تحليلية طويلة. ومنذ صدور «قانون حرية المعلومات» وثقافة التسريب غيــر المقيد، لم تجرؤ أية إدارة تالية على حفظ مثل هذا السجل الكامل لمداولاتها الداخلية ومفاوضاتها الدولية.

والأكثــر مــن ذلك قليلاً هــي الإدارات الأمريكية، هــذا إن وجدت، التي ذهبت بعيــداً في شرح منطق سياستهــا الخارجية للجمهــور الأمريكي، والمجتمــع الدولي، والكونغرس. لأربع سنــوات متتابعة أمضى موظفــو «مجلس الأمــن القومي» أسابيع مضنية في إعداد ملخص للمفاهيــم والاستراتيجيات التي توضح السياســة الخارجية الأمريكيــة. بالإضافة إلى ذلك، عندما كنت في «البيــت الأبيض» كنت أقدم أسبوعياً خلفيــات للأحــداث. بصفتي وزيــراً للخارجية زرت 38 دولة وألقيت كثيراً مــن الخطب حول مشكلة ما في كل دولــة، بالإضافة إلى عقد المؤتمــرات الصحفية والمقابلات التلفازية، وبصفتي وزيراً للخارجية أيضاً قدمت شهادات رسمية وغير رسمية أمام عشرات اللجان في الكونغرس، وكل من كان يقرأ التقرير السنوي أو الخطب الكبرى كان يجد أمامه خريطة طريق مفصلة ودقيقة لتصميم سياستنا الخارجية.

كانــت المشكلة أن المادة في تقاريرنا السنوية كانت محظــورة عملياً بالنسبة للإعلام الوطني، الذي كان يغطي عملياً جانب التعامل مع فيتنام فقط، وكان هو الحال أيضاً، بدرجة أقل، مع «خطبي الحماسية»، واتهــام نيكسون بسرية مزعومــة، والذي كان صحيحاً بالنسبة للتكتيكات ـ تجاهل الجهد التربوي الضخم نظراً لأن الاستراتيجية من قبل موقف الإعلام المستخف تجاه التصميم طويل المدى واستحواذ الأزمات باهتمامه.

معظم وقت الرئيس يُستغرق في تلبية مطالب أصحاب الحاجات: رؤساء الدوائر يطرحون قضاياهم، والزعمــاء الأجانــب يبحثون عن منهج عمــل أو إرشاد، والناطقــون باسم مؤسسات داخليــة يدافعون عن مصالحهم الخاصة أو عن مصالح جماعاتهم العرقية.

وجهات النظر هذه هي تكتيكية إلى حد كبير ومعدة لأوضاع خاصة.

أمــا القضايا ذات المدى البعيد فإنها تشق طريقهــا إلى جدول أعمال الرئيس بصعوبة ونتيجة لبعض الخلافات بين الوزارات عادة. وغالباً ما تعكس النتيجة الرغبة الشديدة لتسيير الأمور بسلام في الدوائر البيروقراطيــة أو الكونغرس، مما يَمّكن مختلــف الوكالات من تفسيرها في أضواء مصالحها الأولية، وبذا تعود الدورة ثانية.

لهــذا السبب غالباً ما تستنفد الرئاسة بسبب الحاجة لرأس المــال الفكري. ومن دواعي التناقض أن كراهية نيكسون للقاءات وجهاً لوجه قد مكنت إدارته من أن تتعامل مع واحد من أصعب التحديات لحكومة

معاصـرة: أن تقتصـر وقت الرئيس ـ وهو أثمن مالديه ـ من أجـل إعطائه الفرصة للقيام برد الفعل. كان جـدول أعمـال نيكسون معـداً بعناية بحيث يسمـح بوقت للمشـكلات العميقة التي تهمه والتـي يمثل حلها قدرتـه العظيمة. كانت تاكتيكات الدبلوماسية وتفاصيل المفاوضات ترهقه. ولكن نيكسون اتخذ القرارات الاستراتيجيـة الأساسيـة، إذ لم يكن بحدة فعلى الأقل في الوقت المناسب، وكان يفخر بنفسه ـ عن حق ـ بقدرته «على الوصول إلى ذروة القوة».

وصـف نظام مجلس الأمن القومي في عهـد إدارة نيكسون بأنه أحدث «انقلاباً» خلال فترة التحول ما بيـن عامـي 1968ـ 1969، حيث ساعدت نيكسون على تركيز السلطة فـي «البيت الأبيض» وكلمة «انقلاب» غيـر مناسبة لأن السلطة في نظام الحكم الأمريكي مركزة في البيت الأبيض. والحق أن قرارات السياسة الخارجيـة المهمـة كان يتخذها الرئيس في معظـم الأحيان. وفرانكلي روزفيلت علـى سبيل المثال انتهج سياسة مركزية كما فعل نيكسون وإن كانت أقل انتظاماً.

كانـت عملية اتخاذ القـرار عند نيكسون تجري علـى مستويين: على مستوى موظفـي البيت الأبيض، ومستـوى جهاز «مجلـس الأمن القومي». وفي عهـد إدارة جونسون كان لوزارة الخارجيـة دور مهم، ولكن فـي غيـاب اجتماعات مجلس الأمن القومي كان هـذا الدور يهتم بالوضع أكثر مـن الجوهر. نقل نيكسون الزعامة إلى البيت الأبيض، ورفع من شأن وزارة الخارجية. رغم أنه لم يهتم أحد من خارج «فوغي بوتوم» كثيراً.

مهندسـ هـذا التغيير هو الجنرال انـدرو غودباستر، الذي كان نيكسون يعرفـه ويحترمه منذ كان يعمل أمينـاً عاماً لموظفي البيت الأبيض في عهد ايزنهاور[11]. وطلـب نيكسون من غودباستر إعادة إحياء مجلس الأمـن القومي لأنه وجد عند استلامه السلطة أن آلية عمـل المجلس كانت غير مفيدة. وكان جونسون يتخذ قراراتـه علـى غداء يوم الثلاثاء يرافقه ثلاثة أو أربعة مديريـن، بدون وجود عمل تحضيري من جانب فريق عمل أو متابعة منتظمة. كان غود باستر مكلفاً بإعادة إحياء نظام مجلس الأمن القومي NSC على أساس أن يقـدم للرئيس أوسع نطاق من الخيارات. ورأى غودباستر أنه طالمـا كانت مجموعات الدوائر الثانوية تابعة لوزارة الخارجية، فإنها لم تكن تمضي بتعاون حقيقي مع البنتاغون والوكالات الأخرى. لذا أوصى بأن يتولى مستشـار الأمن القومـي أو نائبه شؤون اللجان الفرعيـة. وقد وافق الرئيس ايزنهاور علـى المقترحات التي قدمهـا غودباستر، وقـد استدعيته في شهر كانون الأول (ديسمبر) عـام 1968. وافق نيكسون (كما كان قد وافـق ايزنهاور) على توصيات غودباستر، الأمر الذي أفرغ اختصاصيي وزارة الخارجية الذين كان لهم دور في السابق، ولم يعد لهم دور الآن ولم يستعيدوا هذا الدور في أية إدارة قادمة. وبهذا الترتيب أصبح نيكسون هو المسؤول الأول عن هذا النظام وظل هذا النظام مستمراً في خطوطه العريضة مع كافة الإدارات التالية. ومنذ ذلك الحين بات «المجلس» يركز بالدرجة الأولى على الخيارات الاستراتيجية بعيدة المدى.

أفـرز مشـروع غودباستر نظاماً شديد الدقة لمجلس الأمن القومي (NSC) في جمع الخيارات وتطوير استراتيجيتها، ولكنه كان مبهماً من حيث التنفيذ. كانت الوزارات المختلفة تشارك كلية وتقوم بإسهامات كبيرة من أجل تطوير الخيارات. ولكن نيكسون احتفظ لنفسه بالقرار النهائي، والعمل بمفرده إذا اقتضت الضرورة. وتعامل مع النظام الرسمي الذي يجمع مابين الوزارات بالطريقة ذاتها التي يتعامل بها أساتذة الجامعة الكبار مع مساعديهم في البحث. كان يستخلص الناتج بدون أن يلزم نفسه بالضرورة بملاحظات مساعديـه. في الجانـب الأفضل من ولاية نيكسون الأولى ـ حتى رحلتي السريـة إلى الصين ـ كان مجلس الأمن القومي يركز بشكل مقتصر تقريباً على الخيارات الاستراتيجية بعيدة المدى.

شبكـة من الاختصاصييـن الجغرافيين الأدنى علـى مستوى مساعد سكرتير كانـت تجتمع في البيت الأبيـض (قاعة دراسة الأوضاع) برئاستي لوضع أوراق خيـارات لمختلف المناطق. وهذه كانت تُرفع عبر «مجموعة مراجعة عليا» على مستوى نائب وزير إلى «مجلس الأمن القومي»، حيث كان يطلع عليها نيكسون يومياً بواسطـة «مجموعة واشنطن للأعمـال الخاصة» حيث يسمع نيكسون مباشـرة آراء كبار مستشاري مكتبه. وكانت الأزمات تعالج يومياً عن طريق هذه المجموعة التي تتألف من مجموعة مراجعة عليا معززة بخبراء عسكريين وخبراء مخابرات. ولما كان نيكسون يفضل المذكرات بدلاً من مقابلة الأفراد فقد كان ينفـق وقتاً إضافياً للاطـلاع على هذه الأوراق، وغالباً ما يكتب ملاحظات علـى الهوامش. إن الاختراقات التـي قامـت بها إدارة نيكسـون في الصين، واتفاقية مراقبـة التسلح مع الاتحـاد السوفييتي، وفي الشرق الأوسط ما كانت ممكنة بدون الخيارات المقدمة من هذه الشبكة.

كان لـدى وزارة الخارجيـة أفضل الموظفين بين سائر الموظفين الأمريكييـن ـ فهم مختصون وعلى اطـلاع حسن وعلى درجة عالية مـن الانضباط إذا ما تم الاشراف عليهم باحكام. ولكنهم انطلقوا من أن رؤساءهـم المنتخبيـن أو المعينين ربما لم يكن بوسعهم أن يجتازوا امتحان وزارة الخارجية. من هنا فقد اعتبروا أن من واجبهم اقناع الوزير والرئيس بوجهة نظرهم. وكانت قناعاتهم متمسكة بالولسونية تقليدياً؛ والدبلوماسية والسلطة تعالجان غالباً كعالمين منفصلين ـ وتعامل الدبلوماسية على أنها منفصلة عن أي مجال آخر من مجالات السياسة الوطنية. ولم يكن نيكسون على خطأ في اعتقاده أن تفاعلهما الغريزي هو أن يجده ويجد معالجته تقوم على مصلحة قومية غير متجانس.

يمكـن أن يتجلى الموقف المتكبـر لبعض موظفي وزارة الخارجية تجاه نيكسون من خلال موقف نائب رئيـس البعثة فـي طوكيو عندما سمع إشاعة بإن نيكسون في حديث مـع إيساكو ساتو، رئيس الوزراء، عام 1969 يفيـد بـأن الولايات المتحـدة لن تعترض على حصـول اليابان على أسلحة نوويـة. لم يكن في ذلك التقريـر أيـة نبذة من الحقيقـة، ولا توجد أية وثيقة معاصـرة تسجل مثل هذا الكلام مـن جانب نيكسون أو القـادة اليابانيين أو مـن مساعديه. وبدلاً من التحقيق في واشنطن حول دقـة ذلك التاريخ، وعلى هذا

الأساس إما رفض الإشاعة بقوة أو ـ إذا كانت دقيقة ـ تأييد سياسة الرئيس أو الاستقالة، أخذ نائب رئيس البعثة (DCM) على عاتقه أن يهتم بالأمر بنفسه: «نحن خربنا بهدوء كل شيء»[12].

السبب الوحيد الأكثر أهمية أن هذا التوتر المستتر لم يُحَلَّ أبداً دونَ تعيين وليام.ب. روجرز وزيراً للخارجية. وأنا لا أقول هذا للانتقاص من مكانة روجرز الاستثنائية وصفاته الإنسانية، ولا من سعة إدراكه. كان يتصرف بشهامة تُخجل أولئك الذين يحاولون الانتقاص من قدره باستمرار. وفي استعادة للذاكرة لا أشعر بالفخر بالطريقة التي شاركت بها في جهد نيكسون المتعمد لتهميش هذا الرجل الذي كان يعتبر في ذلك الوقت من قبل معظم المراقبين من أكثر الأصدقاء تقرباً من الرئيس.

ومع هذا فقد كان من الخطأ الشديد تعيين صديق مقرب في مركز كان يعتبره نيكسون في نظرته إلى الأمور ثانوياً. ولما كان نيكسون مصمماً على إدارة السياسة الخارجية من حيث المضمون والعلانية ـ وهذا ما أعلنه في حملته ـ فقد كان يحتاج إلى وزير خارجية يعمل كمفاوض رئيسي لسياسات وضعت في البيت الأبيض كما كان وارن كريستوفر بالنسبة إلى نيكسون، أو كناطق رسمي أول أمام الكونغرس ووسائل الإعلام «كما كان ميل ليرد وزيراً للدفاع بالنسبة إلى نيكسون».

ولكن وليام روجرز لم يكن متمكناً كفاية في الشؤون الخارجية كي يتسنم الدور الأول، وكان أكبر من أن يتسلم الدور الثاني، والحق أن روجرز لم يكن خاضعاً لنيكسون بأية درجة. بل على العكس كان روجرز شخصية قوية يستنجد بها نيكسون عندما يكون في حيرة من أمره إزاء مشكلة ما وكان يوفر التوازن والطمأنينة أثناء الأزمات في حياة نيكسون.

وهذا ما أثار أزمة مزدوجة: وجد روجرز من الصعب نفسياً أن يقوم بالدور الثانوي الذي يريده نيكسون له، ووجد نيكسون أن من الصعوبة أن يصر على ذلك مباشرة. وكانت النتيجة سلسلة من المخادعات التي يحقق بها نيكسون بصورة غير مباشرة ما يريده دون أن يأمر بذلك شخصياً. وروجرز من جانبه كان ينفذ ما يريده بدون السؤال عن أي أمر مباشر. وهذا شيء لا بد أن الخبرة الطويلة مع نيكسون قد علمته أنه لا يمكن أن يكون في متناول اليد.

بطريقة أو بأخرى كان الصديقان القديمان يناور أحدهما الآخر بدون أن يبحثا في القضايا الحقيقية التي تفرق بينهما أو تجعلهما يناوران. بدأ الأمر في الأسبوع الأول من ولاية نيكسون عندما استُبعد روجرز من معظم لقائه التمهيدي مع السفير السوفييتي أناتولي دوبرينين. وكان الأمر يتكرر في كل جولة رئاسية، كان نيكسون يصر على وضع برنامج منفصل لوزير الخارجية، بحيث يكون هو وحده، يساعده فقط مستشار الأمن القومي، الذي يدير المناقشات المهمة مع محادثه. ومع مرور الوقت سحب نيكسون المزيد من المفاوضات المهمة والأساسية ليحصرها في البيت الأبيض.

مـع أنني بالتأكيد سهلت هذه الاجراءات فقد كان ينصبُّ تنفيذها تجاه صديق قديم لو لم تكن تعكس رغبـات الرئيـس. لماذا إذن وضع نيكسون روجرز في منصب وزاري بـدون أن يوفر له أية سلطة حقيقية، وبـدون أن يكون لديـه أي استعداد حقيقي لها؟ هل وضع نيكسون صديقـه القديم في موقف لايتوافق أبداً مـع مزاجـه وخلفيته، لأنـه أراد أن يكون الشريك المهيمن ومـن أجل أن يُظهر لروجـزر، الذي كان كثيراً مايستدعيه عندما يشعر بالضغف، من أجل أن يُشعره فقط إلى أي مدى يمكن أن يكون قوياً؟

مهما كان السبب الضمني، وجد نيكسون نفسه مع وزير للخارجية ليس في وضع يُمكنه من إدارة وزارة كان نيكسون يعتقد أنها معادية ايدلوجياً ومتفوقة اجتماعياً. لقد أمضى روجرز خدمته في مجال القضاء. ولـم يسبق له أن تعامل مع السياسـة الخارجية بأية طريقة عملية. نظرته العامـة إلى السياسة الخارجية لاتبتعـد أبـداً عما يرد في الصفحة الأولى «نيويورك تايمز» والتـي كانت قريبة من الرأي السائد في وزارة الخارجيـة. لهـذا لـم يكن لديه القناعة فـي فرض إرادة نيكسون علـى وزارته، ولكنـه كان متأكداً بدرجة كافية بشأن السياسة الخارجية من أجل أن يتحدى نيكسون علانية. نتيجة هذه العلاقة الغريبة بين الرئيس ووزيـر خارجيتـه أن تطلق العنان لجميع توجهـات الإرادة الذاتية والنزعة الليبرالية فـي وزارة الخارجية والتي صمم نيكسون على أن يضبطها أو يتغلب عليها.

كان تهميش وزير الخارجية أسوأ طريقة لتحقيق هدف نيكسون المزدوج لإعطاء الأولوية للبيت الأبيض والحصـول علـى تأييد وزارة الخارجية من أجل معالجة جديدة للسياسـة الخارجية. وكانت الوزارة تشعر بما يعانيه الوزير من ضيق بسبب استبعاده في اتخاذ القرار. وكان الرئيس بدوره يفسر ما تقوم به الوزارة من إعاقات بأنها مثال آخر على «مؤسسة الساحل الشرقي» التي تناصبه العداء.

نتيجـة لاستمـرار هذا النزاع كانت اجتماعات «مجلس الأمن القومـي» بإدارة نيكسون في الغالب ذات طابـع نظـري أو أكاديمي غالباً. وكان الرئيس يستبعد بعض المواضيع بدون الإشارة إليها، أو يُقحم تعليقاً ساخـراً أو تأملاً فلسفياً ليس له نتائـج عملية. لم يكن يعطي أبداً توجيهاً حول الموضوع المحدد، حتى في حالـة عـدم نزاع أو عندمـا يكون ثمة حاجة ماسة إلى قرار. وحيثما أمكن ـ وهـذا نادر ـ كان يبلغ قراراته بمذكرة من المكتب البيضاوي.

عندما كان يشعر الرئيس بالإحباط جراء رغبة إدارية، أو كان عازفاً عن فرض سلطانه على روجرز كان يلجأ إلى القناة الخلفية ـ مفاوضات مباشرة من خلال اتصالات البيت الأبيض، بتجاوز القنوات الدبلوماسية النظامية ومنتدياتها، وبعد فترة تثبت القناة الخلفية أنها مريحة لأنها اجراء للالتفاف على الجمود البيروقراطي.

وفـي الوقـت نفسه فإن المادة الخام لأيـة مفاوضات، مهما كانت سرية، تظهـر بشكل ثابت في أوراق الدوائـر. وعندما أصبحـت وزيراً للخارجية، كانت جميـع المراكز الحساسة تقريباً فـي وزارة الخارجية يديرها موظفو الخدمة الخارجية، وتوقفت القناة الخلفية.

تُظهـر أمثلة قليلة على مفاوضات القناة الخلفيـة أن الدافع إليها لم يكن إخفاق نيكسون في استشارة الخبراء بل في أسلوبه غير المباشر في فرض ارتباطه على الدوائر والخبراء الذين يعوقون سياسته والذي كان يفهم آراءهم جيداً جداً.

المحادثـات السريـة مع عضو المكتـب السياسي لفيتنـام الشمالية لي ديوك تو كانـت بدأت في عهد جونسـون من قبـل إفريل هاريمـان وسايروس فانس، المفاوضيـن الأمريكيِّين الرسمييِّـن في اجتماعات باريـس. وقـد تابع نيكسون هـذه المفاوضات الخاصـة لسببين. لم يشـأ أن يختار رسمياً أحد الخيارات التفاوضية المختلفة المطروحة لأنه كان مقتنعاً ـ عن يقين ـ أن الطرف الخاسر يعمد إلى تسريب موقفه، ولا سيمـا إذا كان الخيـار «الأرق» وبذا يُجسّـم تحدياته الداخلية الخطيرة. كما لم تكـن وزارة الخارجية التـي أنهكتهـا سنوات من الصراع الداخلي تواقة إلى المشاركة في السلوك المخزي من أجل نتيجة مؤلمة ومتناقضـة جـداً. حتى عندما ظهر لي ثو في باريس في عدة زيارات، لـم تقترح وزارة الخارجية مبادرات وبدت قانعة تماماً بأن تترك للبيت الأبيض أن يتحمل عبء الحوار.

المفاوضات لم تكن على أية حال «سرية» تماماً. فوزارة الخارجية كانت بالتأكيد تشك في أمر يجري عندمـا كان لـي دوك تو في باريس، وكانت ملخصـات المفاوضات (وبعضها اختيـاري) تُرسل إلى ديفيد بروس عندمـا كان رئيساً للوفد في باريـس، وللسفير إيلسـورث بانكر في سايغـون. وزودت وزارة الدفاع الطائرة الرئاسية التي أقلّتني إلى فرنسا من أجل مفاوضات نهاية الأسبوع. وبعد الحدث زعم وزير الدفاع ميلفين ليرد أنه كان يعلم بمجريات المفاوضات من مصادر استخبارية. وهذا البيان إن صح، يثير سؤالا حائراً: لماذا لم ترسل هذه التقارير إلى البيت الأبيض، وأُبعدت عني هناك.

علـى النقيض من ذلـك، كان نيكسون قـد وضع الانفتـاح على الصيـن نصب عينيه والهـدف الأول لدبلوماسيته، من خلال القنوات الدبلوماسية أساساً[13]. وفي عام 1954 وافقت بيجينغ وواشنطن على أن تكون وارسو نقطة الاتصال الرسمي بينهما ولكن لم يحدث أي اتصال منذ «الثورة الثقافية». الجزء الأفضل في عقد من الزمان. وفي عام 1968 أمر نيكسون سفيرنا في وارسو المقتدر والترستويسل ببدء المباحثات مع الصينيين في أول فرصة ـ وبدعوة دبلوماسي صيني إن أمكن إلى حفل استقبال دبلوماسي.

بعـد بداية مُجهضة ـ حيث تهرب القائم بالأعمـال الصيني غير المحنك من مبادرة الاقتراب الأولى مـن جانب ستويسل ـ بـدأت قناة وارسو تسخن. فعندما أكد الصينيون في مرحلة مبكرة أن بيجينغ سوف ترحـب ببعثـة أمريكية، وضعت وزارة الخارجية مذكرة مطولة تؤكد علـى الجوانب الفنية ـ كالمواصلات، والاتصـالات، والجوانـب الفنية على سبيل المثـال ـ لهذه الزيارة. كما اقترحت جـدول أعمال للمباحثات يتنـاول موضوعات مثـل انضمام الصين إلـى عضوية الأمم المتحـدة، ومستقبل تايـوان، وقبول التجارة والسياحـة ومراقبـة التسلح. بدون وضع أي من هذه المواضيع في سيـاق جيو سياسي. وخلصت المذكرة

إلــى اقتراح بــأن تكون السفارات الأمريكية في طوكيــو، وتايبه، وموسكو، ولندن، وباريــس، وأتاوا، وروما، وكانبيرا، ولينغتون، وكذلك قنصليتنا العامة في هونغ كونغ مخولة بتقديم معلومات إلى زائريها.

كان اقتــراح وزارة الخارجيــة الذي يعكس مقاربة تقليدية، من شأنه أن يُجهض سياستنا قبل أن يصل أي مبعــوث أمريكــي إلى بيجينغ، أو تحمّله كثيراً من الشروط والأفكار الثانوية بحيث لا يتحقق إلا استمرار الجمود. وبإعلان مثير صرح نيكسون: «سوف نقتل هذا الطفل قبل أن يولد». لذا فقد ارتاح عندما أوقفت بيجينغ الاتصالات عبر وارسو كتعبير عن الاحتجاج على الغارات الأمريكية على كامبوديا عام 1970. وقد استخدمنا هذه الثغرة للبحث عن قناة أكثر مرونة.

عندما وجدنا مثل هذا الوسيط في باكستان كان نيكسون قادراً على إرسالي إلى الصين في شهر تموز (يوليــو) من عام 1971 بدون شــروط مسبقة من قبل الطرفين. كانت مهمتي وضع جدول أعمال يقود إلى زيــارة رئاسية للبدء في تسوية المسائل الأساسية بين البلدين. كان من المستحيل التحرك تجاه مثل هذه الأمــور الحاسمــة والواسعة من خلال الأقنية النظاميــة المتعبة. وكما في فيتنام أستطيــع أن أتذكر عدم وجــود تحقيق لوزارة الخارجية يسعى إلى إعادة تفصيل قناة وارســو، كان الموضوع معاكساً بشكل واضح لتلك الأيام المريرة.

وفي حين كانت المفاوضات السرية حول فيتنام والصين تتقدم بدون أن يتسرب شيء كانت المفاوضات المتعلقــة بمراقبة التسلح الأمريكي ـ السوفييتي تمثل محاولة مــن جانب الرئيس لكسر الجمود الذي كان يسود القنوات النظامية. فبعد «محادثات تقليص الأسلحة الاستراتيجية» (SALT) التي افتتحت في شهر تشريــن الثانــي (نوفمبر) عام 1969، سعــى السوفييت إلى أن تقتصر المناقشــات على أنظمة الصواريخ المضــادة للقذائف الباليستيكية التي كنــا نبنيها. ورفضت موسكو أن نناقش الحد من الترسانة الهجومية السوفييتيــة التــي كان يُضاف اليها مائتا صاروخ في السنة هذا الاقتراح السوفييتي وحيد الجانب كان من شأنــه أن يحــد من قدرة الأسلحة الأمريكية من إضعاف الابتــزاز السوفييتي المتزايد، والتي كنا متفوقين بها، في حين كان ينتج أسلحة هجومية في وقت كنا قد توقفنا نحن عن بنائها. رفض نيكسون هذا العرض وأصر على الاتفاق على الحد من الأسلحة الهجومية والدفاعية في وقت واحد.

علــى الرغم من الطبيعة ذات الجانب الواحد للمقترحات السوفييتية فإن ضغوط الإعلام والكونغرس للتحــرك باتجــاه الموقف السوفييتي تضاعفت. فــي الجو الآسن لجدالنا الداخلــي كان الجمود يلقى على عاتــق المصداقيــة الضعيفة لإدارة نيكسون بصــورة آلية. وكان مفاوضونا الرسميــون تواقين إلى إحداث اختــراق مــا في توجهاتهم نحــو « تسوية » حيث يمكن تخفيض الأسلحة الدفاعيــة أولاً ويجري البحث في الأسلحــة الهجوميــة في مرحلة تالية مــن المفاوضات. ومع اقتنــاع نيكسون أن مثل هــذه المعالجة سوف تفقدنــا تفوقنــا، وعزوفه عــن مواجهة مرؤوسيه، فقــد حل المشكلــة بتحريرها. وفي شهــر تشرين الأول

(أكتوبر) فوضني الرئيس بإرسال مذكرة شفوية إلى رئيس الوزراء السوفييتي الكسي كوسيغين عن طريق دوبرينين تؤكد على أن «البيت الأبيض» لا يوافق على أية اتفاقية تستبعد الأسلحة الهجومية مهما رشح عن المفاوضات الرسمية. وفي الوقت نفسه عرض نيكسون التسريع بمحادثات جينيف إذا وافق السوفييت على الربط ما بين تقليص الانتشارين الهجومي والدفاعي. وبعد أن وافقت القيادة السوفييتية مبدئياً، عملت أنا ودوبرينين على التوصل إلى تفاهم أعلن في 20 أيار، 1971 ـ وكان ذلك أول اختراق في محادثات «الحد من الأسلحة الاستراتيجية»[14].

ثمة عقبات أخرى ـ ولا سيما إدراج الغواصات القاذفة للصواريخ ـ قد جرى التعامل معها على وجه مشابه عبر القناة السرية. والمحادثات التي قادت إلى ضمان الوصول إلى مدينة برلين المحاصرة أعطيت أيضاً دفعاً قوياً في القناة الخلفية للبيت الأبيض ـ ولما كانت المفاوضات هنا رباعية الأطراف فإن الإجراءات كانت أكثر تعقيداً.

اتخذ موقف وزارة الخارجية شكلاً حاداً أثناء الأزمة الهندية ـ الباكستانية عام 1971 عندما كانت وزارة الخارجية مشاركاً كاملاً في جميع المناقشات، بإلحاق الضرر عملياً بقرار نيكسون بأن نظهر للصين أننا نؤيد شركاءنا الاستراتيجيين في وقت الأزمة. كان قد مضى ثلاثة شهور عندما رتّبت زيارتي لبيجينغ من قبل باكستان. لقد عزمت الهند على إذلال باكستان تجاه بانغلادش وأقامت تحالفاً فعلياً مع الاتحاد السوفييتي وكانت تستخدم القوة لتحقيق استقلال بنغلاديش مع معرفتها التامة بأننا قبلنا بالمبدأ وكنا نعمل على تنفيذه.

أمر نيكسون بتغطية دبلوماسية لباكستان لمنع فصل غرب باكستان بالقوة وأن نبيّن للصينيين أننا نرفض تدخلاً عسكرياً يسانده السوفييت. وكان ممثلو وزارة الخارجية في لقاءاتهم اليومية الطارئة يناقشون بتعاطف أن الهند أكثر أهمية من باكستان ــ وهو رأي لا خلاف عليه. ولكن في تلك اللحظة، كانت سياستنا تجاه الصين أكثر أهمية من المصالح الهندية. ووجدنا من الأسهل أن نصلح علاقتنا مع الهند بدلاً من البقاء سلبيين تجاه تحد قد تراه بيجينغ محاولة للضغط على الصين. وكان مسؤولو وزارة الخارجية يعارضون ذلك عاطفياً وهو ما عبروا عنه في عدة مناسبات. ولكن شكواهم الحقيقية لم تكن من تجاهلهم أو تجاوزهم، بل مما يفرض عليهم. ومن وجهة نظر نيكسون (ونظري) أنه ما إن يرفض الرئيس موقف وزارة الخارجية، ينبغي أن ينتهي الجدل. ولكن ما جرى كان على العكس إذ كان يُسرّب إلى وسائل الإعلام والكونغرس. العملية داخل الوزارة كانت تنتج خيارات مكتوبة، كنت أنا ونيكسون قادرين على انتقاء مجريات العمل من خلالها بما يتوافق على أحسن وجه مع استراتيجيتنا الشاملة بدون إعلام واضعي هذه الخيارات حتى نحقق اختراقاً دبلوماسياً.

الاجراءات التي اتخذتها إدارة نيكسون للتفاوض حول أمر محدد، كانت أفضل، حتى قبل أن تعلم باقي الوزارات أن الإدارة الحقيقية لكثير من المفاوضات قد خرجت من أيديها. والأفراد الذين كانوا

يضغطـون علينـا من أجل إظهار مزيد مـن المرونة في المفاوضات، طالما أنهم كانـوا مسؤولين عنها قد تحولـوا ضد الاتفاقيات التي تم التوصل إليها بـدون مشاركتهم. ومن دواعي المفارقة أن التسهيلات التي انتزعناها بكثير من الصعوبة والجهد كانت توصف بأنها غير ملائمة. وأصبح «البيت الأبيض» وأنا بوصفي المفاوضـ الساسـي، نُتهم بالمرونة الزائدة عن الحد، وبـ «التساهل» مـن قبل أولئك الذين كانوا قبل عام واحد يتهموننا بأننا عقبة في وجه التقدم الدبلوماسي. وهكذا أصبح «البيت الأبيض» في عهد نيكسون أولاً ثم بعد ذلك في عهد فورد محروماً بالتدريج من شبكة الأمان البيروقراطية التقليدية.

الإشـارة الأولـى لهذا الخـط البيروقراطي الجديد ظهر أثنـاء زيارة نيكسون إلـى الصين في شباط 1972 حيـن كنـا نتفاوض حـول ما سُمّي فيما بعد بـ «بيـان شانغهاي» لقد رفض نيكسـون مشاركة موظفي وزارة الخارجيـة، خوفـاً من التسريبات، فـي جلسات المفاوضات بين وزير الخارجيـة الصيني كيوا غيوا نهـوا وبينـي، فضلاً عن أنه كان يريد كسب المجد لنفسه لأنه كان يعتقد عن حق أن ما تحقق كان بمبادرة منه لا يشاركه فيها أحد.

ونتيجـة لذلـك فإن وزارة الخارجيـة لم تطّلِعْ على مسودة البيان إلا قبـل 24 ساعة من نشره. اعترض مارشـال غريـن بالتأكيد على بعض الصياغات من أجل تعديلهـا أو المساومة عليها في المفاوضات. ولما كنـا تواقيـن إلى تجنب خلاف داخلي أو تسرب معلومات مسيئة عـن عدم اتفاق داخل فريق نيكسون، فقد طلبنـا من زملائنا الصينيين عقد جلسة مفاوضات خاصـة في منتصف الليل، تلي حفلاً رسمياً، لاقتراح بعض التعديلات الطفيفة. وبعد ساعات قليلة من المفاوضات المستمرة، وافق المفاوضون الصينيون على تغييرات، وإن كانت لم تمس الجوهر، إلا أنها أظهرت دقة وزارة الخارجية ودورها من خلال إعطائها دوراً ما في الختام.

مـا كان بمثابـة إحراج في الصين تحول إلى جمود بيروقراطي كامل فـي أعقاب قمة موسكو في شهر أيـار عام 1972. المفاوضـات حول اتفاقية SALT، التـي سُهل أمرها عبر القناة الخلفيـة، كشفت أيضاً عن محدوديتهـا. ذلك أن الاتفاقية كانت تتضمن كثيراً من اهتمامات ومصالح وزارة الدفاع والعسكريين الرسميين بحيث تحل الأمور بدون علمهم عبر القناة الخلفية. وبالنتيجة فقد جرت المفاوضات المكشوفة ومفاوضـات القنـاة الخلفية في وقت واحد تقريبـاً، وفرضت متطلبات التنسيق مـع موظفي مجلس الأمن القومـي (NSC). ومـا إن التقط السوفييت ذلك فقد راحوا يحاولون أحيانـاً أن يتلاعبوا بإحدى القناتين ضـد الأخرى عن طريـق وضع بعض الاقتراحات في القنـاة المفتوحة كان نيكسون قـد رفضها في القناة الخلفية.

مجموعـة من الطواقم وجدت في موسكو أثناء وجودي فيهـا بصورة سرية في شهر نيسان عام 1972 للتحضير لقمة نيكسون في شهر أيار (مايو). (لقد أصر السوفييت على أن تكون الزيارة سرية، وهذا مثال

آخر على إصرارهم أحياناً على المساواة مع الصين). ثلاث مفاوضات كانت تجري في وقت واحد: «القناة الأساسية» مفاوضات SALT في هيليسينكي، يرأسها السفير جيرالد سميث، والمفاوضات التي ما تزال سرية بين السكرتير الأول ليونيد بريجينيف وبيني في موسكو لتحضير جدول أعمال القمة، والنقاشات الأخرى التي كان يترأسها الجنرال سكوكروفت الذي كان في موسكو يظهر بشكل علني لتحضير الجوانب الفنية لزيارة نيكسون. وفيما كنت أهمّ بالسفر إلى موسكو وضع السوفييت على صعيد جبهة هيليسينكي اقتراحاً كان نيكسون قد رفضه في مفاوضات القناة الخلفية. وكان نيكسون في كامب ديفيد (ربما من أجل ألا يُطلع وزير الخارجية على مهمتي) قد فقد الصلة بما جرى بين الأفراد من حديث، وقد جرت بعض الاتصالات بيني وبين هيغ حتى عودتي إلى أن أصبحت قادراً على تصويب سوء الفهم[15].

ولكن المشكلة المهمة ظلت باقية. إذ ما إن تأكد للوزارات أن «البيت الأبيض» يستطيع ويريد كسر العوائق، حتى فقدت مبادرتها كي تضغط من أجل المرونة. وفي ولاية نيكسون الثانية كانت خياراته الإدارية قد أصبحت مقيدة بنجاحاته في ولايته الأولى. كان كل اجتماع لمجلس الأمن القومي (NSC) ينقلب إلى مجابهة ما بين الرئيس (أو بيني بوصفي وكيله) وبين جبهة موحدة من المعارضة الوزارية. وما إنْ أصبحت وزيراً للخارجية بالإضافة إلى منصب مستشار الأمن القومي حتى تحول مركزي المزدوج إلى إعاقة أخرى لأنه حرمني مهمة توسط حاسمة. في أية إدارة طبيعية تقوم الوزارات بحمل عبء الدفاع العلني عن المناقشات الخلافية. وفي نهاية إدارة نيكسون كان يسود وضع معاكس: كان عبء القرارات مثار الخلاف يُلقى على عاتق الرئيس أو عاتقي.

دفع جيرالد فورد ثمن محاولة ريتشارد نيكسون تولي مهمة وضع السياسة من قبل واحد من أعقد الشخصيات التي أنجبها النظام السياسي الأمريكي. وفي النهاية فإن الإصرار على الجهود المنفردة حالت دون صناعة نيكسون للسياسة من الوصول إلى ذلك البعد الخاص المضاف الذي كان يسعى إليه.

هل سأشتهر بغير شيء إلا الجدارة ؟ هذا ما سألني نيكسون ذات مرة.

الجواب أن نيكسون كان يتوجه بقوة نحو العظمة. ولكن الإنجاز النهائي للرئيس لا يمكن أن يكون مجهوداً فردياً خالصاً. إنه يوجد بالأحرى في تلك المقدرة الخارقة ليثير حماسة مجتمعه ومساعديه للاتجاه نحو ما اعتبروه دوماً يتجاوز مقدرتهم. هذا ما كان نيكسون لا يستطيع فعله. كان تصوره أن يعيش ضمن بيئة معادية بطريقة ما. وهذا ما لم يكن دائماً غير صحيح ــ وهذا ما سبب له أن ينفق وقتاً أطول في استبعاد المخاطر بدلاً من السعي إلى معالجتها، لو أن نيكسون أراد أن يزيد مما كان قد حققه بإبداع وتخيل في ولايته الأولى، لكان عليه العودة إلى عمليات حكومية طبيعية أكثر في ولايته الثانية. مع هذا فإنني أشك بأن يكون قد حضر نفسه في أية حال في أن يأخذ على عاتقه مباشرة مهمة آلة الحكم، ولهذا كان لا بد أن يسقط نتيجة نقص إدراكه.

خاتمة

التحـول إلـى فورد كان بمثابة نقطـة فاصلة لعلاقتي بنيكسون، ومع هذا فقد كتـب بعضهم أن تعاملنا المستمر ما زال على حاله.

بقـي نيكسون على قيد الحياة، بعد أن قدم استقالتـه، مدة عقدين من الزمن. وكانت السنوات الأولى القليلـة فـي عزلته صعبة للغايـة بالنسبة إليه. قلائل كانـوا هم من يهتفون له باستثنـاء قلة من أصدقائه المخلصين، وابتعد عن المجادلات العلنية إلا بالنسبة للأحداث الحساسة التي تتعلق بإساءاته المزعومة لاستخدام السلطة. أثناء هذه الفترة، كثيراً ما كنا نتحدث على الهاتف معاً، وزرته مرة في سانت كليمنت. ولما كنت مازلت في السلطة، عندما وقعت أحداث كبيرة، كنت أرغب في أن أطلعه، عندما أتعرض للهجوم ـ الأمر الذي كان كثيراً ما يحدث ـ كان يهتف لي مؤيداً ويدلي بتعليقات بعيدة النظر[16].

فـي شباط عام 1980 انتقل نيكسون إلـى نيويورك وانطلق في مسيرة مشهودة من أجل إعادة الاعتبار لنفسه كرجل دولة كبير. استضفته على غداء صغير للترحيب به. كان يسعى، لأول مرة، إلى الانضمام إلى «المؤسسة». سيدعو الممثلين الرئيسيين للإعلام والصناعة إلى أمسية للمناقشة تنتهي عادة إلى رسالة، كان يريد أن يرسل بعض الملاحظة الفكرية لكتاب المقالات أو الكتب الذين كانوا يلفتون انتباهه. وبصبر وأنـاة اكتسب نيكسون لنفسه مركـز معلق كبير وجد رؤساء على رأس مناصبهم من أمثال: الرئيس رونالد ريغان وجورج بوش وبيل كلينتون أن من مصلحتهم استشارته.

وبـدأ نيكسون يدلي بخطابات عامـة. تابعت بعضها وأُعجبت بكيفية اختيـاره للمناسبة ليسيطر على مستمعيـه. وكان يستمر فـي الحديث قرابة ساعة بطلاقة ومهارة، وقلة مـن المستمعين كانوا يدركون كم كان يكلفه هذا من جهد. كانوا يعرفون أنها إذا كانت مجموعة مهمة لكتب خطبته مسبقاً أو على الأقل وضع خطوطاً عامة أو راجع أجزاء منها أمام المرآة. كانت تسهم في استرجاع للذاكرة والانضباط الذاتي، وليس إسرافاً عفوياً في التعبير.

فـي نيسان عام 1987 كتبـت أنا ونيكسون مقالة مشتركة، اقترحنا فيها سحـب الأسلحة النووية متوسطة المدى من أوروبا لأننا نخشى أن تؤدي إلى تخلص أوروبي وحيد الجانب من الأسلحة النووية في أوروبا الغربية وإلى انقسام داخل الحلف الأطلسي[17]. وكنا نلتقي أو نتكلم بمعدل مرة في الشهر طوال تلك الفترة، من أجل مناقشة الوضع الدولي على الأغلب. وفي عام 1988 أقام نيكسون حفل غداء على شرفي، دعا إليه المساعدين السابقين لي في «مجلس الأمن القومي»، وبعض الآخرين. وعدا ذلك كانت اتصالاتنا الاجتماعية قليلة.

فيمـا كان نيكسـون يطور جذوراً جديـدة، عرض القول المأثور بأنه بعد سـن معينة، فإن الشخصيات نـادراً مـا تتغير. ظل يلعب أوراقه بحرص حتى عندما تكون الأمور التي نناقشها لم تعد ذات أهمية كبيرة،

أو غيـر مهمـة على الإطلاق. والمثـال الجيد على ذلك الحديث حول ضرورة إقامـة نيكسون في نيويورك. وكان صديـق مشتـرك وثيق الصلة بنا قد أخبرني أن نيكسون قد دفـع وديعة لشراء شقة تعاونية في شارع ماديسون. ومع هذا فإننا عندما تحدثنا عن انتقاله الذي يخطط له إلى نيويورك، طلب نيكسون نصيحتي حـول مـكان مناسـب للسكن كما لو أن جميـع الخيارات ما تـزال مفتوحة، وكما لو أنني مـا زلت أعمل في البيـت الأبيض. بحثت غير راغب في أن أفسد لعبتـه واستعرضت عدة مناطق معه، متعمداً أن أضع شارع ماديسـون في أسفل القائمة. رفض نيكسـون «الشارع الخامس» بسبب السواح، «والنهر الشرقي» لأنه يكره المياه. استعرض معي محاسن ومساوئ كل شارع، إلى أن وصلنا إلى «شارع ماديسون»، حيث أظهر نيكسون عنـد هذه النقطة من الحديـث التحول من الاختيار إلى الضرورة، لقد كانت مسألة حنين حافلة بذكريات الكثير من المناسبات الأكثر أهمية عندما رأيت نيكسون يتحول من محاور إلى شريك. (ما حدث أن الهيئة التعاونية رفضت ـ بغرابة ـ طلب نيكسون).

فـي غضـون ذلك استمر نيكسون يعاني مما كان يعتبره الاهتمـام الخاص المتفاوت نحوي. لقد تعامل معـه بطريقة رومانسية متميزة باختراع القصة الملحميـة حول كيفية تعزيز قوتي في المواقف الحاسمة، كمـا عزز من قوتـي وكبح جماحي وفرض سلطانه علي. في نيسـان 1990 نشرت صحيفـة «تايم» مقابلة مـع نيكسـون تضمنت أنني شجعـت على عملية السلام مع فيتنـام عام 1972 كي أساعـده في الانتخابات «وربما تأمين مصداقية لانتصاره الانتخابي» وأن المؤتمر الصحفي حول «السلام في متناول اليد» لم يكن ضرورياً والحـق أنه كان يفضل عـدم مناقشة المفاوضات علناً مطلقاً، وأنني كنـت طوال الوقت أكثر ثقة بالفيتناميين الشماليين منه[18].

قـررت لمـرة واحـدة أن أجابـه نيكسون بصـورة مباشرة فـي رسالة، يتوفـر النص الأصلـي لها في الملاحظات[19]. بدأت بإعادة التأكيد على أهمية صلتنا في حياتي:

> قـرأت مقابلتك فـي صحيفة «تايم» بمزيج من الكآبة والدهشـة. الكآبة لأنني سأظل أبداً ممتنـاً لك لإعطائي الفرصـة لخدمة بلادي وأعيـد جميعها لإنقاذي وانقـاذ عائلتي من الاضطهاد بفضل رعاية السماء.
>
> ولسوف أعتبر دوماً أنه امتياز أن أعمل مع رئيس كان دوره في السياسة الخارجية متطوراً في رسم الاتجاهات الرئيسية لكل شيء تلا ذلك..
>
> أدهش لعدم دقة بعض التلميحات غير الصحيحة التي تنامت في الآونة الأخيرة. إذا شئت، سأكـون سعيداً أن أقدم لجون تيلور (ساعد نيكسـون) المذكرات المختلفة، والمحادثات الهاتفية والوثائق الأخرى التي لا تترك مجالاً للشك في عدم دقة هذه التأكيدات..

ثـم ذكـرت نيكسون أنه في يوم المؤتمـر الاخباري حول «السلام في اليد»، نشـرت انوي الاتفاقية كما هـي وطالبـت بـأن نوقعها، وأن بعضـ الاستجابة لم تكن متوفـرة وأن بياناتي قد أبدت ذلـك في «المكتب البيضـاوي» بالتفصيـل. وأشـرت إلى أن نيكسون كان ملتزمـاً مثلي بوضع نهاية الحـرب بأسرع ما يمكن؛ والحـق أنه حذر وزير الخارجية السوفييتي غروميكـو شخصياً في نهاية أيلول 1972 بأن لقاء 8 ت1 مع لي دول تو الذي حصل فيه الاختراق سيكون الفرصة الأخيرة لإنهاء المسألة قبل الانتخابات.

أنهيـت الرسالـة بإعادة التأكيد، بشـكل متفق عليه، وحتـى بمذكرة مودة أعطت نيكسـون ثقة بالغة، يستحقها، حول الفوران في العالم الشيوعي الذي كان قد بدأ:

> أي مـن هـذه المسائـل التكتيكية سـوف لن تؤثر فـي ما أعتقـد أنه حكـم التاريخ: أنك فـي ساعة منفصلـة دافعت عن شرف أمريـكا بسياسة خارجية وضعـت، تحت قيادتك، التوجهات الأساسية.
>
> التي تصل إلى مستوى التغييرات الثورية في السنة الأخيرة.
>
> أجـاب نيكسون بطريقة غير مباشرة متميزة. لما كان قد وضع رواية رومانسية للتاريخ في مجلة «تايم» فإنه يضع الآن رواية أخرى بالنسبة لي، وهذه تتضمن زوجتي نانسي.

قـال وهـو لا يعني التضميـن: إنني لم أكن في الجانـب «اللين» حول التفاوض مـع هانوي، العكس كان صحيحـاً. إذا كان هنـاك مـا هو أشد من الصقر فهو أنـا. أما بالنسبة للتفاؤل النسبـي فيما يتعلق بآفات المفاوضات مع هانوي فقد كانت مسألة تاكتيكية كنت فيها على حق:

> إذا مازلـت بالطبع تذكـر، كنت تقول لي دوماً، كما لاحظت في دفتـر يومياتي، أن نانسي كانـت تعتقـد أنه في ضوء موقف ماك غفـرن فإن استمرارنا في اتخـاذ موقف صلب في المفاوضـات يساعد سياسياً أكثر ممـا يضر. وفي حين كنت أشارك في هذا الرأي، كنت أقـول لـك غالباً إننـا إذا كُنّا نستطيـع الوصول إلى تسويـة سليمة قبـل الانتخابات فإننا نستطيـع أن نفعـل ذلك بدون أن نعبأ بالنتائـج السياسية المحتملـة. إذا لم نحصل على تسويـة صحيحة سنرفض توقيـع أي اتفاق حتى ولو كان التأثيـر السياسي سلبياً. أحسب أنك تشاركني في وجهة النظر هذه ومازلت.
>
> كان ثمـة نقطة واحدةٌ اختلفنا حولها في الـرأي كثيراً. شعرت أنه كان لديك ثقة أكبر في المفاوضات مني. من ناحية ثانية، كما لاحظت في «مذكراتي» عليَّ أن أعترف أنك عندما فاوضـت من أجـل اتفاقية السلام في باريس، كنت أنت على حـق وأنا كنت على خطأ في هذا.

ولكـن رغـم ذلك استمـرت علاقتنا الطبيعيـة. وكان نيكسون يدعونـي كي أشاركه فـي الحديث على المنصـة فـي مؤتمرات «مكتبة نيكسـون». رأيت نيكسون لآخر مـرة في كانون الثانـي (يناير) عام 1994 عندمـا كنت أحد المتحدثين في «يوربا ليندا» عند افتتـاح «مركز نيكسون»، وهو مركز للبحث في الشؤون الخارجيـة يقـع الآن في واشنطـن. وكان يتحدث من هذا المنبـر بعض كبار المسؤولين مـن أمثال جورج شولتـز الـذي يتحدث عن تراث نيكسون الداخلي، وبيل روجرز الذي تحـدث عن تراث نيكسون السياسي، كمـا تحدثـت أنا عن سياستـه الخارجية. واختتم نيكسـون الحدث بخطبة رائعة وجههـا إلى جمهور كبير وودي. وفي العشاء الذي أعقب ذلك شربت نخب نيكسون باسم حكومته السابقة.

بعد أشهر قليلة، في نيسان عام 1994 توفي ريتشارد نيكسون.

عشنـا معاً خلال فترات من الأمل واليأس، لحظات من الانتصار سريع الزوال والمخاضات الداخلية الطويلـة. قد يكون نيكسون مثيراً للغضب، شديد الاهتياج بل وشريراً. ولكن الشعور الذي أثاره بوفاته كان شعـوراً بالأسـى. كنت أعي جيداً بعدم شعور نيكسون بالأمن، وأحياناً كنت هدفاً له. ومع هذا، وقد يبدو ما أقـول متناقضاً، فإن مكائد نيكسون التي لا تنتهي يمكن أن تغتفر من قبل أولئك الأقرب إليه، بشكل خاص الذين كثيراً ما آذتهم رغباته ولكننا كنا نعرف طموحاته الجامحة ونعرف أن أقسى معاركه وأشدها تعذيباً كانت مع ذاته.

فـي تلـك اللحظة الحزينة كنت أسترجع في ذاكرتي تلك المناسبة فـي الصيف في البيت الأبيض في سانـت كليمنت عندما دعا نيكسون، بيبي ريبـوزو وإياي، لمرافقته إلى مسقط رأسه قرب يوربا ليندا. وما إن لاحـظ نيكسون سيارة أمن وفريـق من الصحفيين تتابعنا حتى استشاط غضباً وصاح بصوت عال: إنه يريـد أن يختلي مع أصدقائـه. وكان هذا مخالفاً للترتيبات الوقائية المتبعـة. كان نيكسون سعيداً بحريته غيـر المتوقعـة ويريد أن يصطحب ضيوفه إلـى مرتع شبابه. وأصبحنا بلا حراس على خطورة مناصبنا باستثناء مخبر سري واحد كانَ في الوقت نفسه سائقَنَا.

فيمـا كان نيكسون يرينـا محطة البنزين التي كانت تملكها أسرته فـي « دايتير» والفندق الذي اختاره لخوض معركة الكونغرس في منافسة لا أمـل له فيها، و«كلية وايتير» حيث ذكر بعض أساتذته بمودة، كان أكثـر نبلاً ويسـراً وذكاء من أي وقت مضى رأيته فيه. وفي لحظة ارتجال قـرر نيكسون أن يمدد المغامرة بأن يأخذنا إلى لوس انجلس ليرينا البيت الذي عاش فيه لمدة عامين في سنة 1960 كمحام ناجح قبل أن يبدأ مسعاه الأخير نحو الوصول إلى الرئاسة. كانت هناك صعوبة واحدة، فنيكسون كان يتذكر أن المنزل كان يقع في أحد الأودية الضيقة خلف فندق بيفرلي هيلز، ولكنه لم يستطع أن يجده حتى بعد البحث طوال ساعـة فـي كل واد محتمـل. وأثناء ذلك عاد نيكسون إلـى توتره الذي كنت أعرفه جيـداً. شق نيكسون في طريقه إلى الرئاسة كثيراً من الطرق، ولكنه لم يفلح أبداً في أن يكتشف إلى أي واحد منها ينتمي حقاً.

ومـع هذا فقد كان ذلـك الرجل الذي تجاوز المخاوف وهاجم على كافة الأصعدة، الرجل الذي توصل سريعـاً إلـى مفهوم الشرف الوطني، وصمم على أن يبرهن أن الأمة الحرة الأعظم لاحقّ لها في أن تتنازل عن هذا الموقع. وفي إشارة رومانسية ولكنها شامخة إلى رجل الدولة ـ البطل، سعى إلى أن يتجاوز تأرجح أمتـه مابين الالتزام الزائد والانسحاب، ومـع أنه شعر في النهاية أنه لم يستطع تحقيق طموحاته الرفيعة فإن أهدافه كانت جديرة حتى عندما كان التنفيذ يخفق أحياناً.

لهـذا السبب أصبحـت مناسبة وفاته فـي 27 نيسـان، 1994 مناسبة وطنية حضرها جميـع الرؤساء السابقيـن ممـن بقوا على قيد الحياة، ومن بينهم بيل كلينتـون. وكانت كلمتي في رثائه صادرة من القلب. وجاء فيها:

> عندما علمت بالأخبار الأخيرة، والتي كانت متوقعة وإن كان يصعب تقبلها شعرت بخسارة عميقـة وفراغ كبير. وحسب قول شكسبير كان رجلاً بمعنى الكلمة، خذه بمجمله، فأنا لن أراه ثانية»..
>
> ... دعونـا نودع صديقنا الشجاع. دافع عن المبـادئ التي كادت تصل إلى شفير الهاوية. لقـد حقق أشياء كبيرة وعانى كثيراً. ولكنه لم يستسلـم أبداً. وأوجد بمفرده نظاماً دولياً جديداً يخفف من العداوات، ويعزز الصداقات التاريخية، ويعطي أملاً جديداً للإنسانية. إنها رؤية تلتحم فيها الأحلام مع الواقع. لقد استطاع ريتشارد نيكسون أن ينهي حرباً، وأن يتقدم في تحقيق السلام. كان مخلصاً لعائلته، أحب بلاده، وكان يعتبر خدمتها شرفاً له. لقد كان يشرفني أنني كنت مساعداً له.

obeikandi.com